تولستوى

تأليف
حسن محمود

الكتاب: تولستوى

الكاتب: حسن محمود

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

محمود، حسن

تولستوى / حسن محمود

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٣٣ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٣٩٥ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٢٥٧٨٠ / ٢٠٢١

تولستوى

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الفصل الأول

نبلاء وغير نبلاء

كانت روسيا في الربع الأول من القرن التاسع عشر خير موطن لتلك الطبقة المميزة من بني البشر التي تعرف بالنبلاء. وكان هؤلاء النبلاء في تلك الأرض الواسعة أكثر اطمئناناً على أموالهم وضياعهم من أمثالهم في أي ركن من أركان أوروبا القديمة. لقد عصفت بفرنسا ريح الثورة، فاقتلعت هؤلاء السادة وخسروا أموالهم وأراضيهم، وأضاعوا رءوسهم على المقصلة، ثم قام نابليون ابن الثورة، ويرى بعض الناس أنه أعاد تلك الطبقة، ولكنه في الحقيقة لم يفعل، بل أوجد طبقة أخرى ترتكن في ميزتها إلى العمل والبطولة، لا إلى الميراث من جد قديم، وقام بحروبه في أنحاء أوروبا حاملاً ريح الثورة والحرية معه، فاهتزت عروش الملوك، وترنحت تيجان الأمراء في أنحاء أوروبا بأسرها حتى حدود روسيا، وأحيا في قلوب الشعوب أمالا وأحلاما كانت هاجعة من قبل، ووضع أسس لم يستطع النبلاء هدمها فيما بعد: على أن نابليون وإن استطاع أن يحرك مشاعر الشعوب في غرب أوروبا، لم يستطع عند ما اجتاح أرض روسيا أن يبذر في الروسيين بذوراً، ذلك لأن مركز العرش المؤيد من النبلاء والكنيسة كان وطيداً. أما الشعب فكان مصفداً في الأغلال إلى درجة أنه لو رفع القيد من قدميه لوقف

مبهوتا لا يستطيع السير، وإذا هو يتناول القيد ويعيده إلى مكانه.

إذن نابليون لم يحمل رسالة في زحفه إلى موسكو، أو هو حملها ولكن الشعب الروسي لم يتلقها. وكان الجنود الذين يساقون أفواجا المقاتلة جيش نابليون العظيم لا يشعرون إلا بأنهم يدافعون عن أرض القيصر والكنيسة المقدسة. وتقدم نابليون في تلك البلاد المترامية منتصرة في كل مكان بفنه الحربي العظيم، ونظام جنوده. وكان الغرض الذي يسعى إليه يلوح لناظريه، ولكنه ظل دائما بعيدة كالسراب، فما هو غرضه؟ أن يهزم الجيش الروسي ويخضع روسيا لإرادته؟ أن يستولي على موارد روسيا وخيراتها الكبيرة؟ أن يحمل عرضاً رسالة الثورة ويوقظ ذلك المارد النعسان؟ أم هو يرغب في كل هذا، وفوق هذا، أن يكون له فخ السيطرة على أوروبا بأسرها وما يتبع ذلك من مجد خالد؟ إنه يتقدم بجيوشه ظافرة، ولكن في بلاد هجرها أهلها فهو لا يكاد يجد من الأقوات ما يكفي جيشه، وتنضم الطبيعة إلى أعدائه وذلك البرد القارس ينقض عليه، فاذا جيشه يتضاءل ويتمزق. ويدخل موسكو العاصمة الروسية بقبابها اللامعة، فاذا المدينة خاوية هجرها أهلها بعد أن أشعلوا بها النيران. فأين إذن تلك الجيوش التي يريد دحرها؟ وأين إذن ذاك الشعب الذي يريد إبلاغه رسالته؟ ليس أمامه إلا أن يتقهقر جيشه قبل أن تصبح هذه البلاد الغريبة مقبرة له ولهذا الجيش. وهو يتقهقر وسط الغابات الموحشة، والأراضي القاحلة، والعا. ويلاحقه

وينقض عليه كلما لاحت الفرصة ثم يختف، والبرد والجوع يلاحقانه ولا يختفيان. فاذا جلا جيش نابليون العظيم عن أرض روسيا لم يكن إلا فلولا، وإذا هذه الحملة الخائبة تمكن خصومه من القضاء عليه.

في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر أخلدت روسيا مرة ثانية إلى سكينتها وإلى نظامها القائم المتين الذي يرأسه القيصر مؤيد من الكنيسة والنبلاء. أما عامة الشعب فتتألف من السواد الأعظم من الفلاحين الذين لم يكونوا في الحقيقة إلا أرقاء، إذ هم جزء من الأرض التي ولدوا فيها لا يستطيعون أن ينزحوا عنها إلا بإذن السيد، وهم يباعون مع الأرض فيرتفع ثمنها إذا كثروا، وهم خاضعون لمخدومهم في أموالهم، بل في نفوسهم. آجل هنالك قوانين تحرم على السيد أن يسيء معاملة تابعية، وتحرم توقيع العقوبة البدنية التي سمحت له بها القوانين من قبل، غير أن السلطات لم تكن تعاقب السيد إذا أقدم على إيذاء تابعه؛ بل حدث أن أقدم بعض السادة تحت تأثير الخمر أو في ثورة الغضب على قتل رجالهم، فلم تقتص منهم ما يسمونها العدالة، ولم يوقع عليهم قصاص من يزهق الأرواح.

تلك حال السواد الأعظم من الشعب الروسي، هم عبيد ولكنهم شر من العبيد؛ لأن العبيد يختلفون عادة في الجنس أو الوطن عن سادتهم، أما هؤلاء فهم من جنس السادة وأبناء وطنهم.

أما السادة فقوم يشبهون أمثالهم في البلاد الأوربية الأخرى في

أشياء، ويفترقون عنهم في أشياء. حاول بطرس الأكبر في القرن السابع عشر أن يصبغ نبلاءه بصيغة المدنية الأوربية، فهو يدعوهم إلى حلق لحاهم وارتداء الملابس الأوربية بدلا من "القفطان"، ونجح إلى حد كبير في تغيير المظهر، ولكن هل نجح في تغيير النفوس؟ وفي عهد كاترين العظيمة في القرن الثامن عشر اتسع ملك روسيا، وتثقف النبلاء بثقافة الغرب، وصارت الكلمة العليا للغة الفرنسية والأزياء الفرنسية. فالبلاط الروسي يتخذ بلاط فرساي نموذجة والنبلاء يظهرون احتقارهم للغة الروسية فلا يتكلمون ولا يكتبون إلا الفرنسية ولا تلد لهم إلا قراءة المؤلفات الفرنسية، ولكن هل تغيرت نفوسهم مع ذلك؟ وفي أوائل القرن التاسع عشر اشتبكت روسيا في حروب عدة وخطيرة، منها غزو نابليون، الذي ذكرناه، ومنها حروب تركيا ا طهرت هذه الحروب قلوب النبلاء وأخذوا يفكرون لوطنهم، فوجدت النزعات السلافية، ووجدت النزعات المقاومة لها التي تنادي بالاتجاه نحو الغرب. وفي هذا وذاك عاش النبلاء مقلدين أوروبا في مظهرهم لا سيما إذا كانوا من سكان العاصمة أو من سكان موسكو. أما أعيان الريف ذوو الأملاك الشاسعة فانهم يعيشون في دورهم الواسعة التي شيدوها على الطراز الفرنسي أحياناً، أو شيدت على النظام الروسي القديم وهي دور واسعة الأرجاء تتسع لما يحتاجون إليه من خدم كثيرين ومن ضيوف يفدون عليهم وهي دور خالية مما عرفه الغرب حينذاك

من وسائل الراحة والترف. وكان السيد من هؤلاء النبلاء يفضل عيشة الريف على حياة المدن؛ إذ يستطيع ألا يتكلف من المظهر ما تحتمه عليه الحياة الاجتماعية في المدن بل يعيش كأنه أحد فلاحية، غير أنه مالك لأقوات هؤلاء الفلاحين، بل لحياتهم. ولكن هل تغيرت نفوسهم؟

الغريب في أمر هؤلاء النبلاء أنهم كانوا يجنحون إلى الأفكار المتطرفة. ومن المعروف في ذلك العهد أن فولتير كان أحب الكتاب الفرنسيين إليهم، ولو أن مبادئ فولتير طبقت عندئذ في روسيا المقدسة، أو لو أن آراءه وصلت إلى أتباعهم، لهبت العاصفة وحرقهم تحريقاً.

وإنه لمن الظواهر التي تعد من مضحكات القدر أن ينشر فولتير في القرن الثامن عشر آراءه فتتغلغل في الشعب الفرنسي وتهزه هز وتكون من عوامل الثورة الفرنسية التي قضت على النبلاء، وأن يتخذ نبلاء القيصرة كاترين ثم من بعدهم نبلاء اسكندر الثاني ونقولا الأول من آراء هذا الكاتب الفرنسي ملهاة يقطعون بها أوقاتهم ويتحدثون بها بين الكؤوس.

وهذه صورة من حياة النبلاء الروس، أحب الأحاديث إليهم ربما كانت أحاديث الثورات والانقلابات، وأبعد ما يفكرون فيه أن تقوم مثل هذه الثورة، وأن تحدث مثل هذه الانقلابات في بلادهم. أما

الأخطار التي تهدد حياتهم فلم تكن أكثر مما قد يصيبهم في الحروب عند ما يقومون بخدمة الجيش. ولم يكن النبلاء الروس ليبخلوا بدمائهم في سبيل بلادهم، وليس لهم من مطمح أكبر من مراتب الدولة أو مراتب الشرف في الجيش.

هذا هو نمط المعيشة التي كان يعيشها الكونت نقولا تولستوي صاحب الضياع الواسعة في إقليم "تولا" وصاحب القصر الكبير في "اسنايا بوليانا"، والنبيل من أعرق الأسر الروسية حين ولد له في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٢٨ "ليف" أي ليون تولستوي ولده الرابع.

الفصل الثاني

نشأة

في هذا القصر الكبير نشأ "ليون" وترعرع مع إخوته الثلاثة الذين يكبرونه سناً، في رعاية والده الكونت نقولا وفي حضانة قريبته تاتيانا، وقد قامت من الأطفال مقام الأم التي لم يكد "ليون" يعرفها إذ توفيت بعد وقت قصير من مولده. وكان ليون يحيا حياة أطفال النبلاء، يجد الغرف الفسيحة تقطعها قدماه الصغيرتان جرياً، والحقول الواسعة والغابات يرتع فيها تحوطه عيون الخدم والمراضع، إذا شكا البرد فهنالك الدثار الدافئ من الصوف السميك، والكأس الساخنة من منقوع الشاي. المغلي في "السموفار"، وإذا جاع قدمت إليه الفطائر سريعة. ثم هنالك المثقف الألماني الذي جيء به خاصة لتهذيب إخوته وتعليمهم المبادئ الأولية، وتعليمه هو بمجرد أن يستطيع تلقي الدروس.

تلك حياة ليون الصغير، في السنوات الأولى من زمن الطفولة بين إخوته وبين ذلك الحشد من الناس الذين يسكنون قصر "اسنايا بوليانا" ويعيشون في كنفه، وهو حشد غريب حقا، تجد بينهم الخدم الذين يقومون بأعمال معينة، والأتباع الذين لا يعملون عملا معيناً، وتجد الضيوف الذين كانوا عابرين فأقاموا، وذلك الأبله الذي تقابله

كثيراً في القصص الروسية والذي يشعر نحوه الأتقياء من أفراد الأسرة بشفقة ممزوجة بشيء من الاحترام أحيانًا والخوف أحياناً؛ إذ يعتبره بعضهم من ذوي القربي عند الله وذوي الحظوة لديه تعالى، وتجد أناساً آخرين تبعث إقامتهم على الاستغراب في نفوس الناس في أية بلدة أخرى من بلاد العالم، ولكنهم في روسيا ليسوا موضع الغرابة، فهنالك الفتاة ديموسكا ابنة أحد الجيران النبلاء وهو رجل لم يتزوج طول حياته. وهنا فتي يشاهد سائرة في الضيعة أحياناً وهو يكبر أكبر الإخوة بست سنوات أو سبع، وهو أقرب الإخوة شبهاً من أبيهم لأنه في الواقع أخ لهم غير شرعي من فتاة فلاحة.

في هذا الجو نما الطفل وترعرع بين إخوته. فماذا كان شعوره عندئذ نحوهم؟ إنه بلا ريب يحب إخوته جميعاً ولكن هذا الحب تمازجه مشاعر أخرى؛ فهو يحترم نقولا أكبر الإخوة ويجله إجلالاً وهو يميل إلى ديمتري ويشعر نحوه بعطف، أما "سرج" فكان متعلقة بحبه تعلقاً كبيراً قد يمازجه شيء من الغيرة لوسامته.

في سنة ١٨٣٦ رأى الكونت نقولا من واجبه أن يلحق أولاده بالمدرسة بعد أن انتهى عهد تعليمهم بالمنزل، فقرر الانتقال بهم إلى موسكو، واتخذ دارا كبيرة تتسع للأسرة ولخدمها وحواشيها؛ وانتقل هؤلاء جميعاً في موكب كبير إلى الدار التي اتخذها رب الأسرة وهم نيف وثلاثون نفساً، وقد زودت هذه الدار بكل ما كانت تزود به دور

سادة الريف من خيرات إذا سكنوا المدن، ونقلت إلى الدار بعض الأبقار لكي تمد أهلها باللبن! وكانت قافلة من الركائب تنقل إلى الدار في كل أسبوع، مؤونة أهلها من زيت وخبز وخمر!

لم تمض سنة على الأطفال في المنزل الجديد بموسكو حتى فوجئوا بوفاة أبيهم الكونت نقولا؛ إذ سافر لبعض الأعمال فمات في الطريق، وانتقل الأطفال إلى حضانة جدتهم. على أنه لم تمض تسعة أشهر أخرى حتى توفيت الجدة، فتولت عمتهم أمرهم وظل الأطفال إلى خريف سنة ١٨٤٠ في رعايتها. ثم شعرت العمة بأن نهايتها دنت فانتقلت إلى دير توفيت فيه، وتولت عمة أخرى حضانتهم، وهكذا اضطر الأطفال إلى الانتقال إلى بلدة "قازان" ذات الأبراج التترية، والكنائس تعلوها القباب، والمساجد ترتفع منها المآذن، وفي تلك البلدة التي كان منظرها الخارجي أجمل كثيرة من عمرانها الداخلي، أقام "ليون" ست سنوات كان لها أثر كبير في تكوينه.

إنها السنون التي ينتقل فيها المرء من الطفولة إلى الرجولة. وكان من قبل يعيش عيشة هادئة، فإذا به ينتقل إلى حياة صاخبة؛ إذ أن عمتهم وزوجها محبان للحفلات والمراقص والسهرات الليلية، وذلك مما حمل الصبي ليون على الالتفات بنوع خاص إلى مظهره، وأخد يقارن بين صورته وجمال صورة أخيه سرج، وكلما ساءل المرآة زاد يقيناً في دمامة صورته؛ إذ يرى تينك العينين الرماديتين الصغيرتين،

وذلك الأنف الأقني القصير، وتينك الشفتين الغليظتين، وظن أن الناس لا يمكن أن ينظروا المثل هذه الصورة إلا بالكراهية، فأحب أن يدفع هذه الكراهية بالكبرياء والتعاظم، فأخذ يأتي بأفعال غريبة، في يوم يحلق رأسه عله يخفف من قبح صورته، وأحياناً يتفنن في ترجيل شعره كي يبدو على ملامحه الحزن والأسى، وتارة ينزع شعر حاجبه كي ينمو الشعر كثيفاً، ولكن هذه المجهودات لم تغن شيئاً.

وأخيراً عمد إلى القراءة يقبل عليها في نهم ويفكر تفكيراً طويلاً. وحاول أن يحل ألغاز الحياة والوجود والخلود والبعث والموت وغير ذلك من المشكلات، ثم يعود فيفكر في الوجود وجميع مظاهره ولا يعتقد إلا بوجود نفسه، ويحاول أن يقوى من هذه النفس.

وتعتريه نوبات يندفع خلالها في الملاذ اندفاعاً، فيشرب الخمر حتى لا يكاد يفيق، ويتهالك على النساء فتيات ومتزوجات، من بنات الأسر ومن طريدات المجتمع، ثم لا يلبث أن يزهد في هذه الأمور ويأخذ نفسه باللوم، ويندفع في تأنيب نفسه وأخذها بالشدة.

في السادسة عشرة من عمره شعر في نفسه بالميل إلى الالتحاق بالسلك السياسي أو أن عمته رتبت له ذلك، فعول على أن يوجه دراسته إلى ما يلائم المستقبل الذي رسمه لنفسه، وأخذ يعد نفسه للالتحاق بكلية الدراسات الشرقية في جامعة قازان، وأخذ يتلقى دروس في لغات شتى منها اللغة العربية واللغة التركية، وأقبل يستعد

لامتحان الالتحاق بالجامعة، ولم يكن النجاح من نصيبه في الامتحان الأول لضعفه في علمي التاريخ والجغرافيا، ولكنه أعاد الكرة فنجح والتحق بالدراسات الجامعية. وكان طالباً متوسطاً لأنه كان كثيراً ما يغيب بذهنه عن الدراسة، وكان يقبل إقبالاً شديداً على ما يحب دراسته لا ما تجب دراسته، ولم يكن محبوبة لغرابة أطواره؛ فهو يندفع تارة إلى عشرة زملائه ويشاركهم في جده ولوهم، وتراه طوراً متباعداً منقطعاً إلى نفسه. فلما جاء أوان الامتحان في نهاية السنة الأولى من دراسته أخفق في امتحانه؛ فإن طريقته في الدراسة وإقباله على ما يحب وزهده فيما لا يحب ليس من شأنه أن يؤدي به إلى النجاح.

وكان هذا الإخفاق سبباً في عدوله عن الاستمرار في كلية اللغات الشرقية، ولكنه كان لا يزال راغباً في الحصول على درجة جامعية، فنصح له إخوته أن يلتحق بكلية الحقوق، وكانت هذه الكلية تجد أكبر الإقبال من أولاد الأعيان الذين يريدون أن يحصلوا على الدرجات الجامعية في سهولة، فان أساتذتها حينئذ جماعة من الألمان الذين كانوا يتساهلون في امتحاناتهم آخر السنة بما لا يفعله أساتذة الكليات الأخرى. وانتقل تولستوي إلى دراسة القانون. على أن هذه الدراسة الجديدة لم تكن أكثر ملاءمة من الدراسة الأولى. وكان يقبل على مادة أو مادتين من مواد الدراسة غير أن ذهنه لم يكن ليقبل هذه الدراسة على أنها غاية في ذاتها ولقد وصف دراسته فيما بعد بقوله:

"كنت في وقت ما طالباً يدرس القانون، وأذكر كيف وجدت لذة في السنة الثانية من دراستي عند دراسة نظرية القانون لا لمجرد النجاح بل لأني وجدت فيها تفسيراً لما كان غامضاً لدي وغريباً في حياة الناس ولا أزال أذكر كيف أني كنت كلما زدت نظرة في نظرية القانون كلما زدت يقيناً بخطأ هذا العلم أو أني لم أكن قادراً على فهمه. وبالاختصار ابتدأت أعتقد بعض الشيء أن أحد اثنين لابد أن يكون بليداً جداً: إما نافولين مؤلف دائرة معارف القانون الذي كنت أدرس فيها، وإما أنا إذ كنت غير قادر على فهم كل ما في ذاك العلم من حكمة وكنت عندئذ في الثامنة عشرة ولا أعترف بغباوتي، فتقرر لدى أن دراسة القانون مستعصية على مداركي فأقلعت عنها".

الواقع أن الدراسة المقررة لم توضع لذهن فطر على البحث والعمل على استكشاف الأسباب الأولى للحياة ولقد حزر هذه النزعة فيه أحد الأساتذة فعهد إليه في أن يكتب فصلاً في المقارنة بين "روح القانون" لمونتسكيو والبيان الذي كتبته القيصرة كاترين اللجنة التي وضعت القانون في عصرها. فأعجب تولستوي بهذه الفكرة، وأخذ يقرأ حول هذا الموضوع كل ما يقع بين يديه.

لم يكن الشاب الذي وصفه أستاذ التاريخ الروسي بأنه كسول كسولاً، بل كان مقبلاً على القراءة يلتهم المؤلفين التهاماً؛ فقد قرأ قصص سو وديما وبول دي كوك وبعض مؤلفات سترن وديكنز

وجوجول وترجنيف وليرمنتوف وبوشكين وشيللر ولم يكتف بهذه الثروة الأدبية بل عكف على دراسة الفلسفة والاقتصاد السياسي والإنجيل، وقرأ مولفات هجل، وأقبل على قراءة فولتير، ولكنه لم يتأثر به كثيراً.

ولعل أكبر رجال الفكر الذين كان لهم تأثير دائم فيه هو روسو فقد كتب في السنوات الأخيرة من حياته: "كان روسو أستاذاً لي منذ الخامسة عشرة من عمري؛ فروسو والإنجيل هما العاملان الكبيران المؤثران في حياتي". على أن تولستوي كان كريماً في الاعتراف بفضل المؤلفين عليه، فهنالك فارق كبير بين آراء روسو وبين آرائه ولقد ذكر هو نفسه هذا الفارق حين أوضح أن روسولا يعترف بالحضارة في حين هو لا يعترف بالمسيحية المزيفة.

وفي مارس من سنة ١٨٤٧ أصيب تولستوي بمرض فنقل إلى المستشفى وفيه. عاد إلى التفكير في حالته، وأخذ يؤنب نفسه على حياة اللهو التي يعيشها، وتذكر ما قرأه عن بنيامين فرانكلين الأمريكي الذي اعتاد تسجيل أخطائه يومياً في مذكرته، فعول منذ تلك اللحظة على أن يقيد في مذكرات يومية كل ما يأتيه من خير أو شر، ويسجل كل ما يدور بخلده عن حياته. ومنذ تلك اللحظة تكونت فيه هذه العادة، التي لم يهملها إلا فترة قصيرة. ودراسة هذه المذكرات تلقي ضوءً كبيراً على حياته الطويلة، وتظهر النا وجوه النشاط العظيم في ذلك العقل الحبار، ومحاولاته المتكررة للتوفيق بين أعماله ونياته.

في تلك السنة قرر تولستوي أن يترك الجامعة والقانون، وكان أخواه ديمتري وسرج قد أتما دراستهما. وحدث أن قسمت ثروة الإخوة فيما بينهم، فكان من نصيبه ضيعة اسنايا بوليانا وضيعات أخرى تبلغ في مجموعها خمسة آلاف وأربعمائة فدان، وفيها ثلاثمائة وخمسون من الفلاحين الأتباع مع أسرهم.

بدأ يشعر بتبعته نحو هذه الضياع الواسعة، ولعله أخذ يمل عيشة اللهو في قازان. ولا ريب في أنه مل الدراسة الجامعية فعزم على السفر إلى ضيعته، وقد امتلأت نفسه بالآمال الواسعة والآراء الخيالية في الإصلاح، إصلاح نفسه وإصلاح فلاحيه. فما إن وصل إلى قصره حتى أخذ ينشئ الدور النموذجية للفلاحين ويفتح المدارس التعليم أبنائهم، ويعظهم ويصف لهم كيف يريد أن يعمل لخيرهم، فماذا كان نصيبه؟ لقد وصفت هذه الدور النموذجية بأنها أشبه شيء بالسجون لأن الفلاح لم يجد فيها ما ألفه، وضاق الفلاحون بذلك السيد الذي يأبى إلا أن يحرمهم مساعدة أبنائهم في أعمال الحقول، ولم يروا في قوله إنه يعمل لخيرهم إلا حيلة جديدة ليبتز من أقواتهم الضئيلة أو من جهودهم. فهل وجد السيد الذي يعمل لخير الفلاحين من غير أن يكون في ذلك غيم لنفسه؟ ثم ذلك الفريق من رجاله الذين كانوا يتصرفون في أمور الأرض باسمه هل يقنعون بتدخل السياد؟ وهل يقنعون بالكسب الحلال ويقلعون عن الوسائل العدة التي كانوا يبتزون

بها أموال الفلاح؟ لا شك أنهم يقيمون الصعاب في طريقه، وهو لا يلبث أن يشعر بهذه الصعاب فيمل هذا المسعى ويستولي عليه الفتور فيما أخذ به نفسه. وكان يجاوره في ضيعته أخوه سرج وهو يعيش عيشة تمتع وهتك مع فتاة غجرية ذات صوت خلاب: فأخذ الفتى يتردد على دار أخيه وبين صخب الغناء والكؤوس ينسى نفسه ويمضي أيام في لهوه ثم يعود إلى نفسه وإلى مساعيه في الإصلاح.

غير أنه أخذ يشعر مرة أخرى بالقلق لعدم إتمامه دراسته، فعول على الذهاب إلى بطرسبرج عاصمة الدولة، إما ليتم هذه الدراسة أو ليجد عملاً في خدمة الحكومة وفي عاصمة الدولة وجد حياة تختلف عما عرفه في موسكو وقازان. ففيها الناس، كما بدا له، جادون يسعون للعمل. ولكنه لم يلبث أن استكشف أن الجد في العمل يدعو إلى التفنن في ألوان اللهو، وانغمس في الخمر والقمار والنساء إلى أن عاوده تأنيب الضمير، فهرب من المدينة إلى ضيعته.

خطر لأخيه الأكبر نقولا، وكان في زيارته، أن يستصحبه معه إلى بلاد القوقاز وهو ضابط ملتحق بالجيوش، ووافق تولستوي على الفكرة، وسافر مع أخيه في طلب حياة جديدة، بل قد يكون في عمل جديد.

الفصل الثالث

الشباب

رحل تولستوي مع أخيه قاصداً بلاد القوقاز، ولم يسافرا في القطار بل اتخذا باخرة تسير بهما في مياه الفولجا في نزهة نهرية جميلة وتحملهما نحو تلك البلاد الواسعة التي استخلصها الروس في أوائل ذاك القرن من يد الأتراك الفاتحين، فأذكى استخلاصها حماسة عظيمة أثارت قرائح كثير من الأدباء. ولم تكن القوقاز حتى منتصف القرن التاسع عشر قد خضعت خضوعا تاما بل كان أهل الجبال يمتنعون على الروس كما امتنعوا على الأتراك من قبل،وهم قوم أحرار لا يريدون أن يستبدلوا سيداً بسيد. فلم يستطع الروس إلا أن يتخذوا قواعد في الجبال يقيمون فيها حرساً من الجنود الذين يحتفظون بمظهر السلطان للدولة.

وفي تلك البلاد أقام تولستوي ثلاث سنوات في رفقة أخيه أولاً ثم رجلاً من رجال الجيش. وإلى "ستار وجلادفسك" إحدى القواعد، قصد الشاب تولستوي بصحبة أخيه حيث أقام في خيمته لا يعمل شيئاً ولا يجد ما يلهيه في وحدته ولم تكن المنطقة التي نزل فيها مما يحقق أحلامه وكان ينتظر أن تكون هذه البلاد على جانب عظيم من الجمال فاذا بها عارية عنه، وأعرب عن حالته النفسية بقوله: "كيف سقطت

على هذا المكان؟ هذا ما لا أعلمه؟ وكيف جئت إلى هنا؟ هذا ما أجهله".

ولكنه ما لبث أن انتقل إلى جهة أخرى من القوقاز هي "ستارى يورت" ذات منظر جميل، فيها عيون المياه الحارة يجللها الضباب، والطواحين منصوبة على مجاري الماء الواحدة تعلو الأخرى، وتأتي نساء التتر لغسل ثيابهن يستعملن أقدامهن في هذا العمل، ومنظرهن في تجمعهن، على وصفه، أشبه ببيوت النمل والعمل من حولها تتحرك، وكان يقضي الساعات الطويلة وهو يتأمل هذا المنظر كما وصف في رسالة لخالته. ولكنه لم يقل لها أكان يعجبه مجرد منظر تلك الجموع التي تتحرك كالنمال، أم كان يهمه منظر الفتيات في غدوهن ور واحهن بملابسهن الشرقية ذات الألوان الزاهية وما تخفيه أو ما تظهره من أجساد تتحرك تحت تلك الثياب؟

أثرت تلك الوحدة بين المناظر الرائعة تأثيراً خاصاً في نفس ذلك الشاب الذي عرف الملذات وانغمس فيها انغراسا، فشرب من الخمر حتى لم يبق من مزيد، وقامر حتى خسر أكثر من مرة كل ماله، وعاشر النساء من طبقات مختلفة، فعرف الأميرات ونساء الغجر، فهو لم يتأثر بهذا الجمال الطبيعي كما يتأثر الشعراء، وهو يسخر من الشعراء الذين "يزعمون أن الجبال كأنها تتحدث إليهم، وأن العصافير تقول هذا أو ذاك، وأن الأشجار تومئ إليهم من بعيد" بل هو يشعر وسط هذه

الوحدة بشعور آخر، فهو يخلد إلى نفسه يحاسبها عما فعلت في ماضيها: هل عيشة موسكو وبطرسبرج عيشة مرضية: تلك المجتمعات الراقية البراقة التي حرص الشاب تولستوي على أن يظهر فيها حيث يجتمع بعلية القوم من رجال ونساء في أحدث الثياب وأكبر مظاهر الغنى إما ليتحدثوا أو ليرقصوا أو ليستمعوا إلى الموسيقى أو ليشاهدوا المسرحيات في دور التمثيل الفخمة؛ تلك السهرات الطويلة أمام مائدة خضراء حيث يصل الرجال الليل بالنهار في أيديهم الورق، وفي صدورهم الأمل في الربح؛ تلك الاجتماعات السرية في السكن الخاص الذي اتخذه للخلوة بالنساء كما هي عادة النبلاء، هل كانت هذه العيشة مرضية؟

عجيب أن ترى الشاب حتى في تلك السن، يحاسب نفسه حساب عسيرة، لا لكى يقلع عن عاداته، فهو لم يقلع بعد ذلك، بل لأن طبيعته مزدوجة يعمل جانب منها عملاً، ويرقبه الجانب الآخر مستحسناً أو مستهجناً دون أن يتدخل في عمله.

على أن الشاب تولستوي لم يكن ليترك طويلا إلى تأملاته في تلك الجهة السحيقة الهادئة من أرض القوقاز فما لبث أن نقل إلى جهة أخرى ثم انتقل بعد قليل إلى سباستبول حيث كانت تستعر معركة الدول التي رأت أن تؤيد تركيا في قتالها مع نقولا الأول في حرب القرم، وأن تحد من مطامع العاهل الروسي؛ وحينئذ استطاع تولستوي

أن يرقب أعمال الجنود عن كثب، ولعله في ذلك المكان بدأ تقديره الحقيق للجندي البسيط من الفلاحين الذين كانوا أتباعاً لسادة الأرض. في تلك الأصقاع عرف هؤلاء الجنود في معاطفهم الداكنة اللون وقد مر بهم كورنيلوف القائد وقال لهم "يجب أن تعرفوا كيف تموتون يا أولادي، هل تعرفون كيف تموتون؟": وخرج دوي صوت خافت من تحت تلك المعاطف الداكنة والخراب اللامعة: "أجل سنموت" وفي تلك الأصقاع عرف ما يلقاه هؤلاء الجنود من إهمال القيادة العامة ومن عبثها وإسرافها في دماء هؤلاء المساكين، حتى قال تولستوي إن هؤلاء الجنود يبلغون مرتبة القديسين، ولكنه مع ذلك لم يكن يتورع عن صفع هؤلاء القديسين إذا ما خالفوا أمراً من أوامره!

كان تولستوي يعمل في إدارة فرقة مدافع، وهناك استطاع أن يتذوق حقيقة الحرب وما فيها من أهوال مخيفة، وكلما ترك مركزه الراحة يرسل رسائل مطولة عن هذه الحياة، ولم تعد تلك الرسائل مجرد أوصاف خيالية، بل هي مجموعة مشاهدات واقعية يحلل فيها روح الفرد من المقاتلين وروح تلك الجموع المختلفة من الرجال. على أنه لم يلبث طويلا حتى دعي إلى المؤخرة. ولعل ذلك تم بوساطة أقربائه، وصار بعيداً عن الأخطار. فكان يقضي وقته في المقامرة وقد أقبل عليها إقبالاً شديداً، وحاول أن يبتدع وسائل للربح، على أنه كان يخسر أموالاً كثيرة، وفي ذات ليلة خسر ثلاثة آلاف وأربعمائة روبل.

وكان مع ذلك يدعى أحياناً مع فرقته إلى مواقع القتال فاشترك في مرقعة "تشريرنايا" حيث خسر الروس خسارة بالغة، واشترك في الدفاع العنيف عن موقع مالاكوف حين سقطت سباستبول في اليوم التالي في أيدي الأعداء. وكان تولستوي قد تأثر بسير الحوادث فتطوع في المحاولات الأخيرة للدفاع. ووصف تأثير سقوط المدينة عليه في رسالة له يقول فيها: "لقد بكيت عندما رأيت النار تعبث بالمدينة ورأيت الأعلام الفرنسية تخفق فوق معاقلها".

إنهارت الخطوط الروسية، فانتقل تولستوي مع فرقته متراجعاً نحو الشمال، وأخذ في هذه اللحظة يفكر في مستقبله وإذا بهذا السيد الذي أريد به أن يكون رجل حرب يجنح إلى صناعة الأدب، وإذا به يسطر في يومياته في ذلك الوقت: "إن مستقبلي هو في الأدب. يجب أن أكتب وأكتب. ومنذ الغد سأعمل طول حياتي في كل شيء الشعر، والدين، والآداب، أو أترك كل شيء".

الفصل الرابع

أديب

عندما قرر الكونت تولستوي أن يتخذ من الأدب مهنة كان قد وجد من قبل ميلا شديدة إلى الأدب، وأقبل على الكتابة لاسيما في تلك العزلة ببلاد القوقاز. ولقد ذكرنا كيف أنكب على قراءة الآداب الأوربية منذ صغره، فما إن شب حتى تعرف إلى الأدباء الروس وخالطهم، ومع ذلك تردد قبل أن يقدم على الكتابة. فالنبلاء من أمثاله كانوا لا ينظرون في ذلك الوقت إلى الأديب نظرة الاحترام والتقدير. فلما أقدم على نشر كتابه الأول لم يذكر اسم المؤلف، وهذا الكتاب هو قصة "الطفولة" التي ظهرت في مجلة شهرية في سبتمبر من سنة ١٨٠٢ وهو لا يزال وقتئذ في جيش القوقاز، ولم يجرؤ على نشر هذه القصة حتى أعاد كتابتها أربع مرات، وهي عبارة عن مذكرات طفل في العاشرة من عمره من أسرة عريقة يصف فيها حياته المنزلية، فيصف مربيه الألماني، وأمه الحنون وإخوته وأخواته، ومربياتهم، وما يعملونه في جدهم ولعبهم، وأحلام الطفولة وآمالها، ثم ما انتاب أمهم من مرض ووفاتها، وما انتاب قلوبهم الصغيرة من حزن لم يلبث مرح الطفولة أن محاه، كل ذلك في سرد بسيط قوى أخاذ.

عندما ظهرت هذه القصة في المجلة حيا فيها أكبر أدباء الروس

وفي طليعتهم ترجنيف ودستويفسكي أديباً رائعاً. والواقع أنها على قول الأمير "ميرسكى" مؤرخ الآداب الروسية هي الحد الفاصل بين القصة القديمة والحديثة، فاذا تلوناها خيل إلينا أننا نقرأ لكاتب من كتاب القصة في القرن العشرين، وخيل إلينا أننا نقرأ قصة الأندريه جيد، أو للورنس، فهو أول من شرح الدخائل النفسية التي تسيطر على أشخاص قصته شرحاً مستفيضاً كما يفعل الكتاب الحديثون، وهو أول من اهتم اهتماماً شديداً بسرد الحوادث سرداً فنياً.

ولا ريب في أن الأدباء عند ما أثنوا على قصته لم يقدروها ندرها الحقيقي، ولم يعرفوا أنه الكتاب الأول لأديب دخيل ليس من طغمهم، نقل الأدب الروسي من عصر إلى عصر، وأنه سوف يكون له في الأدب العالمي تأثير لا يمكن أن يبلغوه.

أما بالنسبة لتولستوي فإن نشر هذه القصة صاحبه حادث سي لديه؛ إذ ذكر خطأ في النشر أنها صفحات من حياة مؤلفها، وهذا غير حقيقي؛ في تفاصيلها من التباين ما لا يتفق مع حياة تولستوى في طفولته؛ فهو لم يكد يعرف أمه. أما بطل قصة الطفولة فإنه عاش في رعاية أمه متمتعاً بحنانها حتى الثانية عشرة من عمره. ومع ذلك لم يكن ثمة شك في أن العواطف التي يبديها "نكولنكا"، والأفكار التي دارت بخلده في القصة، هي عواطف وأفكار عرفها تولستوي عند ما كان صغيراً. وقد ذكرنا هذا الحادث لأن الخطأ لا يزال يتكرر حتى الآن،

ولا يزال بعض الكتاب يظنون أن قصة الطفولة هي قصة تولستوي نفسه.

في هذه الأثناء حين كانت هذه القصة حديث أهل بطرسبرج،وهي تنشر تباعا في المجلة الشهرية كان المؤلف لا يزال في القوقاز يشهد الأدوار الأخيرة من الهزائم التي منيت بها بلاده حول سباستبول.

ويرى مصرع الجنود الروسيين وما يبدونه من شجاعة، ويرى ما يبديه رجال القوزاق من بطولة تستدعي الإعجاب، فترسم في نفسه صورة ثابتة تمتزج فيها الحقيقة بالخيال، وهو يدون تلك القصص في صور نشرها فيما بعد في مجموعة القصص المسماة "القوزاق".

فإذا عاد إلى بطرسبرج وجد نفسه علماً من أعلام البيان يتسابق الأدباء إلى التعرف إليه، ولم يكن تولستوي حينئذ، ولم يكن في حياته دائما بالرجل الذي يتوارى من الشهرة، ويخجل لها، لذلك تراه يقبل في نهم على الأندية والجمعيات الأدبية. وكانت تلك الجمعيات تنقسم إلى فريقين: فريق يرى احتذاء أوروبا الغربية وآدابها ويرى في ذلك السبيل القويم لنهضة بلاده، والفريق الآخر يرى التمسك بأهداب الماضي والاحتفاظ بذلك الطابع الذي يميز الروح السلافية بما فيها من تلك النزعات العنيفة التي لا تزال تضطرم في نفس لم تهذبها قيود المدنية.

ومن الغريب أن يكون من أشهر أدباء النزعة السلافية دستويفسكي ذلك الأديب الذي ذاق آلام النبي والسجن وعرف الفاقة والجوع، ولكنه

لا يمكن أن يكون قريباً إلى نفس تولستوي المنحدر من أعرق أسر النبلاء، فهو يعيش في عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه رجل ينعم بالضياع الواسعة وآلاف من الفلاحين.

أما زعيم الفريق القائل بالاتجاه نحو أوروبا الغربية فهو إيفان ترجنيف الأرستقراطي الذي يمتلك أراض واسعة وفلاحين، وهو يقضي أكثر أوقاته بعيدا عن وطنه حيث يقيم في بلاد يراها أكثر تمدنا من هذا الوطن لا سيما باريس.

وقد توطدت الصداقة بين تولستوي وترجنيف وكان يلذ التولستوي أن يغشى داره، على أنه مما يشك فيه أن ترجنيف كان يرحب بذلك الأديب الجندي، فترجنيف كان أنيق المظهر شديد التمسك بآداب السلوك التي عرفها واعتادها في الأندية الباريسية حيث اعتبره الأدباء الفرنسيون واحداً منهم، مع أنهم شديدو الحرص على عدم الاعتراف بالأجانب والابتعاد عنهم، أما تولستوي فكان لا يعرف من آداب السلوك شيئاً فكان يقبل على الخمر يكرع منها في نهم، فإذا تحادث أو تناقش صاح صاخباً معربداً بينما المضيف يرتعد فرقاً وإشفاقاً على أثاث منزله.

لعل تأثير ترجنيف كان الحافز له على السفر في رحلة لزيارة بعض البلاد الأوربية ولزيارة باريس بنوع خاص، فقام بالقطار إلى فرسوفيا ثم مر ببرلين ووصل إلى باريس،حيث مكث عدة أشهر يجول

في أنحاء عاصمة الامبراطورية الثانية ويستمتع بكل ما يستمتع به الأجانب في تلك المدينة سواء في ذلك العصر أو في غيره من العصور، فهو يقول في رسالة إلى صديق "لقد قضيت حتى الآن شهرين في باريس، ولم تلح على اللحظة التي أنتهي فيها من الاستمتاع بتلك المدينة أو أفقد فيها ما أجده من سحر. ولقد تبين إلي الآن أني كنت على جهل مقيم لم أشعر به كما شعرت به الآن، وأن مجرد الشعور بذلك لما يبعثني على أن أهنيء نفسي بالقدوم إلى هذه المدينة لاسيما أن هذا الجهل مني يمكن إصلاحه الآن. وما أشد ما أشعر فيها من جمال الفنون الجميلة في قصر اللوفر وقصر فرساي ومعهد الأوبرا والحفلات الموسيقية والمسارح والمحاضرات في الكلية الفرنسية والسربون وتلك الحرية الاجتماعية التي لا نجد لها أقل أثر في روسيا...".

ومع ذلك عاد تولستوي وهو في سن الكهولة إلى هذه الذكريات فيما بعد، وقال إن هذه الزيارة تركت في نفسه أسوأ الأثر!

الفصل الخامس

قلق وزواج

أشرف تولستوي على العقد الرابع من حياته وهو يعيش وحيداً لم يتخذ له شريكة في الحياة، ومع ذلك عرف الحب أكثر من مرة، وأحيا آمالاً في قلب أكثر من فتاة، ولكنه كان دائماً ينكص في اللحظة الأخيرة ويفر فراراً غير شريف.

لم يكن ذلك عن زهد في الزواج أو عن عقيدة في الاحتفاظ بحريته ولا عن خجل في طبيعته. فالزهد في الزواج لم يخطر له، لم يكن هو في ذاك الوقت ممن يرون في الزواج قيداً للحرية، والخجل ليس من صفات ذلك الرجل الذي أمضى الكثير من الليالي الصاخبة بين الخمر وبنات الهوى، ولكنه على الأرجح نتيجة النفس قلقة غير ثابتة تتبين مظاهرها في الكثير من تصرفاته في كل أدوار حياته. ومن مظاهر هذا القلق في ذلك الحين اعتقاده الراسخ بأنه مصاب بالسل، وتأصل هذا الاعتقاد في نفسه منذ سنوات، وما زاد في اعتقاده إصابة أخيه نقولا وإصابة غير واحد من أقاربه بهذا الداء. وفي البلاد الشديدة البرودة روسيا يتعرض الناس للإصابة بالأمراض الصدرية في سهولة، ولكن ليست كل إصابة هي نتيجة لهذا الداء الوبيل.

ومما زاد في مظهر القلق لديه رحلته الأولى إلى فرنسا وسويسرا،

إذ لابد أنه قارن بين حالة تلك البلاد التي عرفت الحرية، وبين بلاده وما فيها من سلطان مطلق يقضي على أي مظهر من مظاهر الحرية بيد من حديد، لذلك نراه في السنوات الخمس الى تلت تلك الرحلة يعيش قلقة متنقلا بين قصره في اسنايا بوليانا حيث يمضي الصيف، وبين داره في موسكو حيث يقضي الشتاء، وبين هذا وذاك زيارات قصيرة لبطرسبرج، يلتقي فيها ببعض الأدباء وعلية القوم من أقاربه أو بالأحرى قريباته، وقد اتصل في ذلك الوقت بخمس منهن على أن أقوى علاقة كانت مع الكونتيسة الكسندرا تولستوى الوصيفة في البلاط، وهي التي ظلت طول حياتها تخلص له الود ولربما كانت تضمر له الحب. وهو يكتب إليها إذا ما سافر الرسائل الطويلة، ويلقبها على سبيل المداعبة بالحدة لشدة حديها عليه وتشددها في النصيحة له، وفي الرسائل التي كتبها في ذلك الوقت يعبر عن قلق نفسه وحيرتها؛ فهو يقول ذات مرة "إن الإنسان يجب ألا ينشد السعادة بل ينشد الخير" ..ويقول في رسالة أخرى "إن هدوء النفس هي حال النفس غير الأمينة". وفي تلك الآراء نرى جانباً بارزاً من فلسفة تولستوي وآرائه في الحياة تظهر قبل أوانها.

في سنة ١٨٥٨ قرر لتولستوي أن يقوم برحلة إلى غرب أوروبا، فسافر بالباخرة من مدينة بطرسبرج الى شتتن من بلاد المانيا ومنها قصد برلين، وصحبه في هذه الرحلة بعض إخوته وكان من بين

الأغراض التي توخاها من رحلته زيارة طبيب مشهور في تلك المدينة للتأكد من حقيقة مرضه. وزار هذا الطبيب بصحبة هؤلاء الإخوة والأخوات، ففحصهم وأعلن براءتهم من مرض السل الخبيث، إلا أنه حكم عليهم بأن يذهب كل عضو من أعضاء الأسرة إلى بلد من بلدان الاستشفاء غير الذي وصفه للآخر، فكان على تولستوي أن يتم رحلته وحيداً.

على أن تولستوي كانت له أغراض أخرى من هذه الرحلة، فقد أنكب –كما ذكرنا في بدء حياته –على دراسة مؤلفات جان جاك روسو الكاتب والفيلسوف الفرنسي. وأعجب بآرائه في التعليم ونشر في صباه مقالا عنه، كما حاول إقامة مدرسة نموذجية في ضياعه الواسعة لتعليم النشء من أولاد الفلاحين، فلم يوفق وأقفلت المدرسة وعاد مشروعه بالإخفاق، وانصرف إلى أمور أخرى. وفي تلك الفترة من حياته عاودته حمى التعليم مرة ثانية وأحب أن يدرس النظم التي تتبع في عاصمة البلاد البروسية، فقصد معاهد العليم العالية حيث واظب على محاضرات درويسن المؤرخ المعروف، ومحاضرات بواريمون العالم الفسيولوجي، ثم زار مع أحد الطلبة مدارس العمال ومدارس صغار التلاميذ، فأعجب إعجابا شديدا بمدارس العال لما رآه من حرية المناقشة بين المعلم وطلبته، ولكنه لم يعجب بمدارس الأطفال في ألمانيا إذ رأى فيها شدة ونظامًا لا ينبغي في رأيه أن يتبع مع صغار الفلاحين.

وكان عليه في تلك الرحلة واجب عائلي هام آخر، هو زيارة أخيه الأكبر الذي أصيب حقيقة بالسل وهو في إحدى مدن الاستشفاء الألمانية، وبلغ مرضه حالة أقلقت أفراد الأسرة فصارت تلح على تولستوي في أن يذهب لزيارة أخيه، ونراه يؤجل ويؤجل تلك الزيارة جرياً وراء دراسته للموضوع الذي شغل فكره. ولقد اضطر أخوه في آخر الأمر إلى أن يسافر إلى موينخ لرؤيته على ما به من مرض. فلما تقابل الأخوان ورأى تولستوي حالة أخيه سافرا معاً إلى جنوب فرنسا التماسا للدفء والشمس ولم يمض غير خمسة وعشرين يوماً حتى مات الأخ بين ذراعي أخيه.

تلك أيام ظلت منقوشة في ذهن تولستوي وكم من مرة أماته بصور خالدة في مؤلفاته وكم من مرة ردد فيها ذلك المنظر: عندما كان يعاون أخاه على القيام لشدة ضعفه فكان الأخ يستاء لذلك ولكن جاء اليوم الذي صار الأخ يقبل هذه المعونة دون تردد. وفي مرة قال له بعد أن عاونه "شكراً لك أيها الصديق" فهو يبحث ويبحث عن معنى كلمة الصديق في هذه الحالة؟ هل كان أخوه يبتعد عن أمور هذه الأرض حتى لم ير فيه غير الصديق.

وهو يذكر تلك اللحظة الأخيرة عند ما فتح الأخ عينيه وتلفظ بسؤال ... ما هذا؟ ثم أطبق فيه إلى الأبد. ما أكبر هذه العبارة سيأتي اليوم الذي نسائل فيه جميعا ما هذا؟

استأنف تولستوي رحلته وهو مثقل بهذه الأفكار المحزنة،ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة طرق التعليم في مرسيليا ثم شعر فجأة برغبة في التغيير، فسافر إلى إيطاليا حيث فلورنس وروما ونابولي ثم عاد بعد ذلك إلى باريس حيث قابل ترجنيف صديقه ومنها رحل إلى لندن، وهناك كان يرتدي ملابس من أحدث الأزياء ويبالغ في التأنق، وأخذ يتردد على المشاهد المألوفة في ذلك العهد كمنازلة الديكة كما أخذ يزور المدارس المنشأة الأولاد الفقراء، وذهب إلى البرلمان الإنجليزي حيث حضر خطبة للورد بالمرستون، وزار أكثر من مرة درزن الفيلسوف الروسي والثوري المعروف الذي كان يقيم في لندن ومنها يرسل النشرات إلى بلاده.

بعد فترة قصد تولستوي بلاد البلجيك وفيها على بالنبأ العظيم الذي اهتزت له أرجاء روسيا والعالم، وهو صدور مرسوم القيصر بتحرير الفلاحين في ١٩ فبراير سنة ١٨٦١، وكان المتبادر الى الذهن أنه سيسرع في العودة إلى بلاده عند سماع هذا النبأ، فهذا المرسوم يحقق فكرة دارت بخلده منذ سنين وأراد أن يحققها قبل أن يأخذ القيصر إسكندر الأمر بيده، والآن وقد تحققت فكرته لم تأخذه الحماسة بل ظل يتابع رحلته على مهل.

مكث في البلجيك زهاء شهر قابل خلاله الفيلسوف برودون وكتب في أثنائه قصة بوليكوشكا من قصصه الشهيرة. ثم أخذ في

العودة إلى بلاده عن طريق ألمانيا، فزار فيمار وأستأذن الدوق في زيارة منزل جيته ثم عرج على "يينا"، وهنالك تعرف إلى شاب متخرج في كلية العلوم رأى فيه الشاب الصالح لأن يكون معلماً بالمدرسة التي عزم على افتتاحها، بل رأي فيه "جوهرة نادرة" فاتفق معه ومع أهله على أن يسافر معه بل أن يسبقه إلى ضيعته وزوده بالمال اللازم للسفر في الحال إلى روسيا وتابع هو رحلته. وفي درسدن علم أن هذا الذي اسماه "الجوهرة النادرة" قد احتسي الخمر حتى ضاع صوابه وخسر كل ما أمده به من مال.

عاد تولستوي إلى ضيعته في اسنايا بوليانا فإذا أمامه عمل جديد اقتضاه صدور مرسوم تحرير الفلاحين. فالمرسوم يقضي بتعيين حكم في كل إقليم يقوم بالنظر في المنازعات التي تنشأ بين الملاك والفلاحين. عند تحريرهم ووقع الاختيار على تولستوي. وقد احتج الملاك على اختياره لما يعلمونه من نزعته الغريبة نحو تأييد الفلاحين. ولكن الحكومة أقرت تعيينه وأقبل هو على عمله في نشاط واهتمام غير عادي، لكنه لم يلبث أن مل هذا العمل، فإن أحكامه كانت لا تقبل من الملاك كما أن الفلاحين انتهزوا فرصة عطفه عليهم فصاروا يرهقونه بالمطالب والشكوى، وكان عمله يتطلب قراءة أوراق كثيرة وعقود مملة، ثم أنه كان في دخيلة نفسه يبغي الاستفادة من هذا العمل بأن يجد فيه مادة لكتاباته، ولكنه لم يجد إلا القليل. وعلى ذلك

استقال بعد حين وانصرف إلى تحقيق نظرياته في التعليم وعاد إلى فتح مدرسته.

اقتبس تولستوي نظرياته من قراءة روسو، ولكنه ذهب فيها مذهبة متطرفة كعادته في أعماله. فروسو يرى أن الإنسان فطر على الخير، وتولستوي يستنتج من ذلك أن البلاد الروسية المتأخرة عن أوروبا هي أقل إصابة بمساوئ الحضارة، وهي إذن صفحة بيضاء يستطيع المربون أن يخطوا عليها ما يريدون من وسائل التربية الصحيحة، وأن أطفال الروس هي أكثر امعاناً في الطهارة من غيرهم من الأطفال.

ومع كل هذه النتائج البعيدة يأتي تولستوي في مجال العمل فيذهب إلى أبعد منها، فهو يرى أن تلاميذ مدرسته هم الذين يعلمون مربيهم طريقة الدرس، وينبغي ألا يجبروا على الذهاب إلى المدرسة بل يذهبون إليها من تلقاء أنفسهم عن رغبة لا رهبة، بغير كراسة ولا كتاب، كأنهم ذاهبون إلى عيد من الأعياد.

أنشئت مدرسة استايا بوليانا فما لبث أن افتتحت مثيلات لها في أنحاء المقاطعة. وكان من الطبيعي مع كثرة هذه المشاغل ألا يؤلف تولستوي شيئاً في تلك السنة وأن يرهق بالأعمال حتى ساءت صحته واضطر لأن يسافر في الخريف إلى جنوب روسيا للاستشفاء، وقد ظن أنه في هذه المرة أصيب بالسل حقيقة.

في أثناء غيابه حدث حادث كان له أثر كبير في نفسه، ذلك أن رجال الشرطة هاجموا قصره بأمر من الحكومة وظلوا يبحثون وينقبون في أوراقه وقد أزعجوا أهل القصر ولكنهم لم يجدوا ضالتهم وهذه أول مرة حصل فيها صدام بينه وبين الحكومة.

فيما إن عاد من استشفائه وعلم بالأمر حتى أرسل بالشكايات والعرائض إلى القيصر، وأخذ يكتب رسائل شديدة اللهجة إلى صديقته وقريبته الكونتيسة الكسندرا الوصيفة بالبلاط، وأخذت الكونتيسة تطيب من خاطره وقد أوصلت شكايته للقيصر، الذي أمر حاكم الولاية بأن لا يتعرض للكونت تولستوي بسوء وظهر بعد سنوات طويلة أن رجال الشرطة كانوا يبحثون عن مطبعة سرية ظنوا أن تولستوي يمتلكها وأنها طبعت منشورات وزعت في ذلك الحين فيها نقد للحكومة وتجريح لأعمالها، على أن تولستوي كان في ذلك الحين يفكر في مشروع آخر هو الزواج.

لقد أقدم منذ صباه أكثر من مرة على الزواج ثم كان أحجم في اللحظة الأخيرة إحجاماً لا يليق بمركزه ولا بالفتاة التي كانت موضع تفكيره، ولكن في هذه المرة يظهر أنه كان أكثر عزماً. ذلك أنه منذ سنة ١٨٥٧ زار الدكتور بيرز أحد أطباء البلاط القيصري وكان متزوجاً من فتاة هي ابنة أحد جيرانه في أملاكه وكان يشاركها اللعب وهو صبي، فوجد أن هذه السيدة لها ثلاث بنات في سن الزواج،

الكبرى منهن وهي ليزا جميلة الوجه متناسبة القسمات إلا أنها وقورة ثقيلة الحركات بعض الشيء، أما الأخت الثانية وهي "سونيا" فكانت خفيفة الروح ذكية تقبل على القراءة وتؤلف قصصا صغيرة وإن كانت تقل عن أختها جمالاً، والصغرى منهن وهي "تانيا" لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها في ذلك الحين وكانت مرحة للغاية تملأ الدار ضحكاً وصياحاً.

وتأثر تولستوي بالأخت الكبرى وأخذ يكثر من التردد إلى الأسرة ولم يكن عندئذ شاباً بل هو رجل قارب الأربعين. ولم يكن بالرجل الجميل الصورة، وكان في ذلك الحين أقبح منه في أي وقت آخر من حياته، فقد أطلق لحيته وهي كثة غير منتظمة إذا كان شعرها خفيفا في بعض المواضع، وكان أنفه الأفطس يعلو لحيته ومن فوقه عينان صغيرتان رماديتان براقتان، على أنه كان بما له من مركز مطمح أنظار الأمهات. وعلى ذلك ظلت الأم ترحب بزياراته وهو يكثر من الزيارات إليهم ويبدي إعجابه بالفتاة على أنه لم يقدم دليلاً على نيته.

الواقع أن تولستوي كان يحب الفتاة ولكنه كان على عادته غير متأكد من نفسه، والواقع أنه راغب في الزواج ولكنه يخشى أن يغير الزواج من حياته. ومضت شهور وهو واقف عند هذا الحد يتنقل بين بطرسبرج حيث يكثر من زيارة الأسرة وبين ضيعته حيث يراسلها. وانتهزت الأسرة قدوم الصيف فقررت الذهاب إلى الريف وقررت الأم

أيضا أن تزور مع بناتها تولستوي في ضيعته وتمت هذه الزيارة. وكان يكتب في مذكراته إحساسه نحو ليزا وحبه لها ثم إذا به يعود فيسجل أنه يراها غير صالحة كزوجة ثم يعود فيسجل أنه يراها كريهة. وفي هذه الأثناء كان يتحول تحولاً عجيباً نحو أختها سونيا ويرى أنها أجدر بأن تكون زوجة له. وشعرت سونيا بذلك وسرت في أعماق نفسها ولكنها لم تظهر شيئاً احتراماً لأختها، ولم يلبث أفراد الأسرة جميعاً إلا الفتاة ليزا أن لاحظوا هذا التحول وأخذت سونيا تجذبه إليها حتى فتحت أعين ليزا للحقيقة وقام صراع صامت بين الأختين.

طال الأمر حتى لم يعد أمام تولستوي غير أمرين إما أن يقدم على طلب الفتاة وأما أن ينقطع عن زيارة الأسرة. وفي ذات يوم قصد منزل الأسرة وطلب أن يقابل سونيا على انفراد وسلمها رسالة لتقرأها ثم ترد عليه. ومما هو جدير بالذكر أن لدينا جميع تفصيلات هذا الموقف، فتولستوي كما هو معروف استمر منذ صباه يكتب مذكرات يومية، وسونيا كذلك كانت تسجل مذكراتها اليومية و"تانيا" أختها كانت تسجل أيضاً مذكراتها اليومية.

هجمت ليزا على أختها تقول: ماذا كتب لك؟ فأجابها أختها: عرض علي الزواج، فصاحت بها الأخت: أرفضي في الحال. وأجهشت بالبكاء وتدخلت الأم ودفعت ابنتها سونيا نحو السلام قائلة: اذهبي وخبريه بجوابك.

تقدم إليها تولستوي متلهفاً وسألها ماذا ترين؟ فأجابت وافقة بالطبع. وبعد لحظة كان أهل الدار يتقادمون إليها بالتهنئة ما عدا ليزا والوالد الذي كان يحب ابنته الكبرى أكثر من أخواتها.

الفصل السادس

الحرب والسلام

انتقل تولستوي على أثر زواجه إلى طور جديد من أطوار حياته سواء في معيشته أم في نشاطه الفكري. فزوجته كانت مولعة به ولكنها كانت من النوع الذي لا يسمح بالمشاركة في الحب، فما إن صارت سيدة قصر اسنايا بوليانا حتى بدأت تنظم القصر وترتبه كما ترى، لا تسمح لقريباته في التدخل، بل لا تسمح لزوجها في أي تصرف داخل الدار. وامتد هذا النشاط إلى خارج الدار أيضا فحملت زوجها على أن يترك المشاغل غير المجدية في نظرها مثل المدرسة ومخالطة الفلاحين، ودفعته إلى العناية بتدبير أمور ضيعته وتنظيمها بحيث تدر عليهما إيراداً وافراً، وخضع الزوج الذي ذاق لذة الزوجية وهو الرجل السريع الخضوع لشهواته وتسلطت عليه الزوجة تسلطاً كبيراً. وفي السنة الأولى من زواجه جاءه طفله الأول من ثلاثة عشر طفلاً جاءوه على مدى الحياة.

بعد سنة من زواجه عاد إليه حنينه للكتابة وكان عليه أن يتم قصة القوزاق التي وعد بها أحد الناشرين وقبض ثمنها مقدماً فأتمها، ونشرت في ذلك الحين ولاقت من الاقبال ما لاقته كتبه الأولى التي جعلته في الرعيل الأول من كتاب روسيا.

ولكنه أخذ يشعر بأن عليه رسالة أكبر من ذلك فأخذ يفكر في

موضوع رواية عن أولئك الثائرين الذين ديروا مؤامرة في أول حكم القيصر نقولا الأول، ولكن اكتشفت تلك المؤامرة التي عرفت باسم مؤامرة الديسم بريين وعوقب المتآمرون– وكانوا من كبار المفكرين– شر عقاب.

ولكنه لدى دراسته لهذا الموضوع اتجه فكره نحو السنوات الأولى من القرن التاسع عشر في روسيا، ووجد نفسه مسوق إلى موضوع وطني عظيم، هو ذلك الهجوم الهائل الذي قام به نابليون على البلاد الروسية حين اقتحم أراضيها ووصل إلى عاصمتها موسكو ثم ارتد خائبا مقهورا وهو المنتصر الذي لم يعرف الهزيمة من قبل، وكان ذلك بدء النهاية وأفول نجمه، كل ذلك لا لأنه وجد جيشاً أقوى من جيشه وأكثر عدة بل لأنه وجد شعبة أجمع على ألا يقهر.

ثم أراد أن يرسم صورة للهيئة الاجتماعية في حالة الحرب حين يأخذ الناس في أحاديث قلقة مضطربة حول موقفهم من العدو وموقف العدو منهم، فالطبقة العليا تخوض في مثل هذه الأحاديث ولكنها لا تستغني عن اجتماعاتها وملاهيها العادية من حفلات راقصة ومسارح وزيارات ونزهات والتمتع باللحظة السريعة، وهذه اللحظة تبدو في أكثر سرعة وأجدر بأن تقتنص، أما عامة الشعب فهم يخوضون في هذه الأحاديث وهم منتظرون تلك اللحظة التي يسوقهم فيها الحكام للتضحية.

هذه موضوعات طريفة حقاً إن عالجها كاتب جدي،ولكنها تبلغ منتهى العظمة عند ما يعالجها كاتب في أوج نبوغه وتلك كانت حال تولستوي، فإنه إذ يكتب هذه القصة يشعر بأنه مسوق بقوة خفية تدفعه إلى عمل عظيم خالد أمضى فيه سنوات خمس استغرقت كل مجهوداته، وقد نشر القسم الأول من هذه القصة العظيمة الطويلة في سنة ١٨٦٥ وسماها في ذلك الحين باسم "سنة ١٨٠٥" ونشر القسم الأخير في نوفمبر سنة ١٨٦٩ واختار لها نهائيا اسم "الحرب والسلام" ولا تسلك القصة النسق الروائي المعروف من حيث بسط الموضوع ثم الوصول إلى النتيجة بل هي تسلك أسلوباً أقرب إلى الملاحم الشعرية التي أبدعها خيال الإقدمين أي كما فعل هوميروس في الإلياذة والأوديسة.

ليست الحرب والسلام قصة موضوع بذاته ينطوي على مجرى حياة بعض الأسر الكبيرة بقدر ما هي تصوير لتيار حياة أمة في فترة عصيبة من الفترات وفي أزمة من الأزمات التي تنتاب الأم فتقضي عليها بالحياة أو الموت. وليس الموت في الأمم كموت الأفراد، معناه العدم والفناء، وإنما معناه وقف الحياة فيها سنوات أو قرون بحيث لا تقوم بدورها في الحضارة بالرغم من كثرة أفرادها وجده في العمل. وغزو نابليون لروسيا كان من تلك الأزمات الشديدة التي تصاب بها الأمم لذلك كان طبيعياً أن يشعر بخطورتها جميع أبناء روسيا على تباين

طبقاتهم وعلى اختلاف ما يستفيدون من صد المغير، فالطبقة العليا تدافع عن أموالها وأملاكها وسلطانها، والطبقة الدنيا التي لم تكن قد تحررت بعد، لا تدافع عن غرض أو نفع مادي، وإنما عن الأرض التي نبتت ونشأت فيها.

تلك القصة التي صاغها مؤلفها في عمل في عظيم ليس له مثيل من قبل وربما لم يأت له من بعد مثيل، ليست على قول تولستوي نفسه رواية قصصية ولا هي قصيدة ولا هي سجل تاريخي بل أنه اتخذ الشكل الأنسب للموضوع، وهو لم يرد إظهار مساوئ العصر لأنه لم ير في ذلك العصر من مساوي أكثر مما كان في عصره، وهو لم يعلق أهمية على العظماء الذين اشتركوا في تلك المأساة الدامية بل كان همه أن يظهر أن مجرى الحوادث كان أكبر من تقديراتهم، وأن يد الأقدار كانت تكيف الأمور وفق ما تريد لا وفق الخطط التي رسموها، وقد وصف تولستوي ذلك بإتقان بلغ أقصى ما يصل إليه البشر.

ومن ميزات تولستوي في تلك القصة العظيمة أنه اقتطع الأشخاص من صور حية تعيش بجانبه من أفراد أسرته وأقاربه ورجال طبقته الذين يخالطهم بل من نفسه. فصورة "بير" مثلا فيها الكثير من صورة تولستوي، والفتاة ناتاشا الصغيرة المرحة هي على الأغلب صورة نتانيا أخت زوجته وإن ذكر تولستوي أنه في رسمها مزج بين الزوجة وأختها. ولقد تكون صورة نابليون مصورة بقلم ناقد يهمه أن يسجل

النقائص ويتغافل عن المزايا ولكن يجب ألا ننسى أن المؤلف أراد بذلك أن يقوي من ملحمته الوطنية.

كانت حياة تولستوي –في السنوات الخمس التي كتب فيها روايته –حياة سعيدة على الغالب، فهو متفرغ لأبحاثه يقرأ كل ما يقع بين يديه من مذكرات ذلك العصر ورسائله وتدبر الكونتيسة أمور البيت في حزم. ثم يملي عليها ما يدور بخاطره وتخلو إلى نفسها لتنقل ما أملاه بخط حسن. ثم يعود فيغير ويبدل وهذا دأبه دائما، فقد كان يرسل أحياناً برقيات إلى الطابع ليغير كلمة أو عبارة، فتعود الزوجة إلى نقل الكتابة مرة ثانية. ولا ريب في أن عملها كان مساعدة جليلة وهي لم تكن تكتفي بمجرد النقل بل كانت تحثه على الكتابة واتمام عمله العظيم، ففي طبيعة تولستوي ما يدفعه إلى الهروب من العمل قبل إتمامه. ومع ذلك لم يكن تولستوي في أعماق نفسه راضياً كل الرضا بل كتب أكثر من مرة في مذكرته ما يدل على قلقه وتبرمه بالحياة التي يحياها. وكثيرا ما نجد في مذكرته الخاصة التي اعتاد أن يخط فيها خطرات نفسه ودخائلها ما يدل على بدء الشعور بأن الحياة الزوجية ثقيلة الوطأة على نفسه، فهو يقول "إن الحياة معها في مكان واحد صعب على نفسي" ومع ذلك كان لا مفر له عن هذه الزوجة فهو إن لم يكن قريباً منها روحيا كان لا يستطيع الاستغناء عنها جسدي وهو الرجل ذو الرغبة المتجددة.

الفصل السابع

نزعات وتجارب

ظهرت للناس قصة "الحرب والسلام" فارتفعت شهرة كاتبها إلى أبعد ما تصل إليه شهرة كاتب في بلاده، وجاوزت حدود بلاد روسيا إلى الأقطار الأخرى من البلاد الأوربية وغير الأوربية وشرب الكاتب كأس الثناء حتى الثمالة. على أنه انتهى منها وهو برم بها يود لو انتقل إلى عمل آخر أو يعود لو استطاع أن يتركها دون إتمام، ولولا زوجته ومثابرتها لعدل عن إتمامها.

لذلك لم يكن غريباً منه أن رأيناه ينتقل إلى عمل آخر فيعود إلى فكرة تثقيف أولاد الفلاحين وتعود مدرسته إلى الظهور. وفي هذه المرة لم تكن الكونتيسة لتقف في سبيله إذ أنها في تلك الأثناء قد جاءته بخمسة أطفال نموا وبدأ تثقيفهم على يديها، فكأنها والحالة هذه افتتحت مدرسة صغيرة، ولم يكن يضيرها أن يلتفت زوجها إلى مسائل التعليم عله يشاركها في تعليم أولادها.

بدأ هذا الاتجاه المسائل التعليم بأن فكر في وضع كتاب المطالعة الأطفال فأخذ، يطلب الكتب من فرنسا وانجلترا وألمانيا من هذا النوع ليهتدي بها وصارت حقائب الكتب تأتي تباعاً إلى اسنايا بوليانا وتملأ كل مكان وهو –الكاتب الكبير– ينصرف إلى قراءة هذه الكتب

ويدون ملاحظاته، وقد ترك أمور الزراعة نهائيا لزوجته التي غيرت وبدلت في موظفي الزراعة لاسيما من كان منهم ذا زوجة جميلة.

ومن الغريب أن تولستوي كان يعنى في هذه الفترة بأمور عدة لكنه كان لا يعنى بكتابة قصة من قصصه الخالدة. وقد أقبل على المطالعة في نهم فقرأ الكثير من القصص الروسية القديمة، وقرأ في هذه الفترة أو أعاد قراءة مؤلفات شكسبير وموليير وجيته وجوجول ثم أخذ في تعلم اللغة اليونانية القديمة، ولم تمض أسابيع حتى كان يقرأ بها مؤلفات الأقدمين وأظهر تقدماً غريباً عجب له أستاذه.

وأقبل بين هذا وذاك على إلقاء دروس على أولاده وفي مدرسة الفلاحين. ومن الغريب أنه كان برماً بالدروس التي يلقيها على أولاده لا يصبر إذا أظهروا قلة فهم ولا يغتفر خطأ لهم، أما مع أولاد الفلاحين فكان صبوراً كثير العطف والحنان وكثير الاهتمام بما يحصله الأطفال.

على أنه كان من الطبيعي أن يستحثه أهله وجميع أصدقائه ويلحوا عليه في أن يعود إلى التأليف وألا يترك ثمار موهبته العظيمة، ولذلك أخذ في البحث عن موضوع يكتب فيه وصادف أن قرأ كتاباً في تاريخ بطرس الأكبر فاتجه إلى اتخاذ حياة هذا القيصر الروسي العظيم موضوعاً. إلا أنه آثر أن يضع قصة تمثيلية في هذا الموضوع وبدأ يجمع المذكرات الخاصة بذلك العصر ويقضي أوقات طويلة في

تلاوتها، ولكنه كلما ازداد علما تفصيلات تلك الفترة من تاريخ روسيا كان يجد نفسه بعيداً عن العطف على ذلك القيصر العظيم. فهو ينظر إلى حياة هذا القيصر وأعماله نظرة الناقد، ويرى أن الإصلاحات التي قام بها حين عمد إلى إدخال النظر والتقاليد الغربية في روسيا لم تكن عملاً جليلاً بل كان فيها قضاء على فضائل الروس القديمة، فهو في صف خصوم ذلك القيصر من النبلاء الذين عارضوه لا في صف ومؤيديه ومناصريه.

وعلى ذلك طرح هذا الموضوع بعد أن شغل به سنتين وعدل عنه نهائياً.

وفي هذه السنوات شعر بعدة أمراض استشار فيها أطباء موسكو فكان يشكو تعباً في عينيه وأرقاً ثم عاوده الخوف من أن يكون مصابة بمرض في صدره، فكان يذهب في الصيف للاستشفاء بجنوب القوقاز، وشرب لبن الأفراس المحمر الذي يسميه الروس "الخميس" وظلوا يعتقدون أنه من أحسن الوسائل للشفاء بل لقد اشترى في تلك الجهة ضيعة ليذهب إليها في الصيف وكان يذهب مع بعض أفراد عائلته أو معهم جميعاً إذ أصرت زوجته ألا تتركه وحده بعد ما كان منه في رحلة سابقة من الاتصال بفتاة جميلة.

هكذا مرت السنوات التي تلت ظهور "الحرب والسلام" في بحث عن موضوع الرواية جديدة وفي محاولة الفرار من الكتابة.. أهي طبيعة

الفنان الذي أخرج كتاباً خالداً أن يقضي بعض الوقت في الاستجمام من عمله؟

في سنة ١٨٧٠ حدث لدى أحد أصحاب الضياع المجاورة حادث أثار أهل إقليم "تولا" وكان موضوعاً لتعليقاتهم وأقوالهم. ذلك أن رجلا كهلاً من أصحاب الضياع أتى بقريبة فقيرة إلى داره بعد أن ماتت زوجته لترعي أمور الدار وكانت فتاة جميلة صغيرة السن، فأحبها واتصل بها واتصلت به ولم يخرج هذا الأمر عن حد المألوف عند هؤلاء السادة، وكانت الفتاة الساذجة تعتقد أن الرجل سيظل وفياً لها في حبه. غير أنه لم يلبث أن ملها فرأى أن يتخذ مربية جميلة لأولاده، فأتى بفتاة فرنسية واتصل بها فتملكت من قريبته الغيرة وأخذت تعنفه على عمله. فطردها من منزله وظلت الفتاة هائمة في المزارع ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث أرسلت إليه رسالة تستعطفه فيها فرفض أن يقرأ الرسالة فاستولى عليها اليأس وألقت بنفسها أمام قطار كان ماراً بالمدينة. وانتشر خبر الحادثة في سرعة البرق ودفع الفضول بتولستوي إلى أن يذهب إلى المحطة، حيث كان يجري التحقيق وشهد جثة الفتاة.

أثرت فيه هذه الحادثة، ويظهر أنه رأى فيها موضوعاً صالحاً القصة غير أنه لم يأخذ في الكتابة بل ظل يفكر كيف يبتدئ موضوعه. وفي أحد الأيام كان جالساً يقرأ مجموعة قصص لبوشكين الشاعر

الروسي فإذا به يقرأ قصة ابتدأها بقوله "بدأ المدعوون يفدون في صبيحة العيد"، فتأثر بهذه البداءة البسيطة السهلة وقام لوقته إلى غرفة مكتبه وبدأ قصته الجديدة وظل يكتب ثلاث ساعات.

علمت زوجته في المساء بأنه ابتدأ قصته الجديدة ففرحت لذلك فرحاً عظيماً، فقد كانت تقدر موهبته في القصص تقديراً كبيراً وترى أن مجهوداته في غير ذلك هباء وعبث وكثيراً ما سهرت الليالي في إعادة كتابة هذه النصص حتى تكون صالحة للنشر. ونستطيع أن نتبين هذا المجهود لو وقع نظرنا على أحد كتب تولستوي بخطه فنشعر بما كانت تلقاه من تعب في حل تلك الرموز.

كانت قصة الفتاة المنتحرة هي التي أوحت الى الكاتب موضوعه لكن قصة أنا كارنينا بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد حادث عابر، بل هي قصة أسرة بل ثلاث أسر، وقصة مشكلة خطيرة هي مشكلة الزواج غير الموفق. فأنا كارنينا الفتاة المترفة الممتلئة حياة التي تعيش في أرقي الأوساط التي عرفتها روسيا القيصرية وتختلط بأكبر أعضاء الهيئة الاجتماعية، تتزوج من رجل متقدم في السن كبير الجاه واسع الثراء، وتقبل الزواج منه لأنها تود أن تعيش عيشة الترف التي تعودها. أما الزوج فهو ينظر إلى زوجته نظر المتاع الذي يكمل به مظاهر جاهه وثرائه، ولا تلبث الفتاة أن تشعر بحقيقة موقفها من هذا الزوج ولكنها لا تستطيع الخلاص، وهي في الوقت نفسه أبية النفس

لا تريد أن تخضع للظروف، فتقدم على حب شاب من النبلاء وترى في هذا الحب عوضاً عما تعانيه في زواجها وترى فيه انتقاماً من موقف الزوج نحوها، وتندفع في هذا الحب اندفاعاً شديداً حتى تصير مضغة للأفواه، وتهدد بالقضاء على مستقبل عشيقها، فيحاول العشيق أن يتخلص من هذا القيد فإذا هجرها لم تجد بدا من الانتحار بأن تلقي بنفسها أمام قطار سائر.

ليس هذا هو كل موضوع القصة، فهنالك قصة أسرة أخرى تمثل الزواج العادي إذ الزوجة مخلصة وفية، والزوج رجل عابث لا يتورع عن الاتصال بنساء أخريات، يعوضن ما فقدته الزوجة من جمال حين أكثرت من الأطفال وشغلت بتدبير أمورهم، وإلى جانب ذلك وصف المؤلف حباً طاهراً يشب بين فتاة جميلة وبريئة وبين شاب من نبلاء الريف لا يعرف مساوئ حياة المدن أو هو يعرفها ويحتقرها ثم ينتهي هذا الحب إلى الزواج السعيد المتكافئ.

تلك هي الخيوط المختلفة التي ينسج منها المؤلف قصته في مهارة عجيبة جعلت هذه القصة من أكبر المؤلفات الخالدة للكتاب الأوربيين. على أن تولستوي كعادته رسم صور الأشخاص من الحياة المحيطة به. فليس لقين في القصة إلا صورة لجانب من تولستوي نفسه ولعله خير جوانبه، وفي آنا كارنينا وفي حبها للسيطرة وشدة غيرتها على عشيقها فرونسكى شبه قريب بزوجته سونيا، وفرونسكي نفسه صورة

أخرى للمؤلف في عصر من العصر، فهي إذن قصة قائمة على حياته وحياة أهله في اسنايا بوليانا وان كانت حوادثها قد صيغت بيد فنان من أكبر الفنانين الذين عرفتهم أوروبا.

ومن عجيب الأمور أن كبار الكتاب المعاصرين له بل أكبرهما دستويفكي وترجنيف لم يقدرا هذه القصة حق قدرها في مبدأ نشرها، ولعل ما لقيته من إقبال وتهافت كان سبباً وعاملاً شخصياً لديهما جعلهما يغمطان من قدر الكاتب العظيم، فقد ذكر دستويفسكي في رسالة إلى زوجته أنه على أن تولستوي يتناول أجراً عن قصته هو ضعف ما يتناوله الكاتب في صعوبة وإلحاح، ويقول في مرارة "ذلك لأني أعيش من هذا العمل" وكان هذا القول حقاً.

وقد وصف لزوجته اجتماعاً حضره عند بعض الأصدقاء فقال "لم يقل أحد كلمة عن روايتي وكان من البين أنهم لا يريدون جرح عواطفي ولم يتحدثوا كثيرا عن رواية تولستوي ولكن ما قالوه يدل على حماسة عجيبة" وذكر أنه يرى آنا كرنينا قصة مملة.

أما ترجنيف فقد ذكر في رسالة أنه يعرف مقدرة تولستوي ولكنه اتخذ في "آنا كرنينا" اتجاهاً خاطئاً وأنها ليست عملاً فنياً حقاً.

ومع ذلك لم يلبث دستويفسكي حين قرأ القصة كاملة أن نسي شكوكه وكتب يقول "ليس لهذه القصة من مثيل، مَن مِن كتابنا يقارن بتولستوي؟ وفي أوروبا من كتب ما يقارن بها"

وقد أبدى تشيكوف رأيه حين كتب لصديق "أمام الفنان أمران حل مشكلة وإظهار مشكلة في صورتها الصحيحة والأمر الثاني هو وحده من واجبه: ففي آنا كرنينا وأوجين أونيجن (لبوشكين) لا يحل المؤلف مشكلة واحدة ولكنه يرضينا ارضاءً كاملاً لأن جميع المشاكل موضوعة في أصح صورة"

لا ريب في أن تولستوي كان يهتم لما يسمعه من ذم أو مدح في قصصه لاسي هذه القصة العظيمة. ولكنه كان لا ينفك يشعر برغبة في العدول عن إتمامها، فهو قادم على تحول كبير في نفسه وفي آرائه.

الفصل الثامن

اعترافات

أن يكون الرجل واسع الضياع كبير الثروة، ذلك أكبر ما يرجوه الناس في حياتهم، وأن تكون له زوجة محبة وأسرة في نمو دائم فينعم بالمال والبنين ذلك أقصى ما تقف عنده آمال الناس، أما أن يؤلف تلك القصص الخالدة، فيبلغ بها ذورة المجد في بلاده وتدر عليه إلى جانب ذلك أموالاً لا حاجة به اليها، فذلك ما يعمل له الناس في حياتهم فلا يصلون إليه وقد وصل إليه تولستوي.

ونحن ننتظر من مثله أن يكون هادئاً ناعم البال وقد بلغ في القصة إلى أكبر ما بلغه الكتاب في ذلك العصر وكل ما بني أمامه هو أن يتسابق مع نفسه، ولو فعل لظل من أكبر كتاب القصة في أوروبا إن لم يكن أكبرهم، ولكن لم يكن ليشغل في الحياة ذلك المركز الغريب الذي وصل إليه.

فبينما كان تولستوي يحبر في سنوات تسع أوراق "الحرب والسلام" ثم "آنا كارنينا" وقبل أن ينتهي من وضع هذين المؤلفين العظيمين كانت آراءه تتجه نحو وجهات أخرى من التفكير. وآفاق جديدة ليس من شأن الروائي أن يغوص فيها وان كان له أن يلى بها وقد ألم بها تولستوي في كتبه.

فقد أخذ يتجه في البحث نحو الدين والكنيسة الروحية، وكانت نفسه القلقة قد حاولت أن تجد في الدين دعامة ترتكز عليها. فنجده في هذه الفترة من حياته يقوم بزيارات لعدد من الأديرة الشهيرة في روسيا، ويحاول أن يقابل رهباناً عرفوا بالتقى لكي يلقي عليهم أسئلة مما يدور في خلده من مسائل دينية، لاسيما ما يتعلق منها بالحياة والموت. وثمة مسألتان حاول تولستوي أن يعرف سرهما كما حاول غيره من كتاب. وان كان تولستوي قد تعمق في وصفهما تعمقاً كبيراً وبخاصة في كتاب الحرب والسلام وقصة موت ايفان إيلتش. على أنه لم يجد لهاتين المسألتين من جواب وأنى له أن يجد! اتجه في بحثه نحو الأناجيل ونحو العهد القديم وحاول أن يقرأ هذه الكتب المقدسة في لغاتها الأصلية. وكان قد تعلم اليونانية القديمة من قبل فأخذ يتعلم اللغة العبرية في جد في هذه السن لكي يستطيع قراءة العهد القديم في لغته الأصلية. وكان في أثناء قد أخذ يمل عمله الروائي.

ولاحظت زوجته هذا التحول في نوع من الاضطراب،لأنها كانت ترى أن شهرته روائية هي أهم من كل شيء لاسيما بعد أن اعترفت جميع الأوساط بنبوغه وتفوقه وبعد أن درت عليه قصصه من المال فوق ما يريد. وقد حدث في ذلك الوقت أن أهدى اليه صديق كتاب المسيح للكاتب الفرنسي رينان فقرأه ولم يعجبه، لأن ذلك الكاتب أراد أن يضع أساسً تاريخياً لتلك الحياة ولأن الكاتب الفرنسي أراد أن

يقيم بحثه على أسس تتفق وما وصل إليه العلم الحديث، وتلك طريقة لا تلائم تولستوي ذلك العهد الذي كان ذا نزعة صوفية على دقة بحثه.

هذه النزعة الدينية الصوفية انتهت به إلى أن أخذ سنة ١٨٧٩ في وضع كتاب سماه "الاعترافات" وهو كتاب نحا فيه نحو جان جاك روسو إلا أنه في الواقع بعيد عن أن يكون في مثل صراحته وان كان لا يقل عن الكاتب الفرنسي في فنه. وهو كتاب نجد فيه صفحات جميلة من بلاغة تولستوي وبيانه كما نجد الكثير من متناقضاته في تفكيره: "... سأقص في يوم من الأيام تلك القصة المؤثرة المفيدة عن السنوات العشر من سي الصبا، وإني لأعتقد أن الكثيرين قد جربوا مثل هذه التجربة فقد أردت من أعماق نفسي أن أقصد الخير، وفي كل مرة حاولت فيها أن أعرب عن رغبة الخالصة في أن أكون صالحاً كنت أقابل بالاحتقار والسخرية ولكن بمجرد خضوعي لشهوات بهيمية كنت أمتدح وأشجع.

الطمع وحب السلطان والجشع وحب اللذة والكبرياء والغضب والانتقام كل هذه كانت محترمة.

فإذا ما خضعت لهذه الشهوات صرت شبيهاً بمن هم أكبر مني سناً وشعرت أنهم راضون عني ..... في تلك السنوات ابتدأت الكتابة لمجرد الخيلاء والطمع والكبرياء وكنت في كتاباتي مثلي في الحياة.

ولكي أحصل على الشهرة والمال وهما ما كتبت من أجلهما كان من الضروري أن أخفي الخير وأنوه بالشر وهذا ما فعلت. وكم من مرة حاولت في كتاباتي أن أخفي تحت ثوب عدم الاهتمام أو السخرية تلك الميول عندي نحو الخير، وهي التي تجعل معنى للحياة، وقد نجحت في ذلك وكان جزائي الثناء.

وفي السادسة والعشرين من عمري عدت إلى بطرسبرج بعد الحرب وقابلت الكتاب فقابلوني كواحد منهم وغمروني بالثناء. وقبل أن يكون لدي الوقت لأنظر فيها حولي قبلت نظرتهم إلى الحياة. وهذه النظرات قضت على كل محاولاتي التي قمت بها لكي أحسن من نفسي وهذه النظرات كانت تسوغ عيشة الاستهتار التي أحياها....

ومن عجيب القول أنني فهمت ما في هذه الحياة من خديعة وأقلعت عنها ولكني لم أنزل عن المرتبة التي وضعني فيها هؤلاء الناس وهي مرتبة الفنان والشاعر والعالم. ولقد خيل لي في بساطة أني شاعر وفنان وأستطيع أن أعلم الجميع دون أن أعرف ماذا أعلم ؟وسرت في هذا السبيل.

ومن اختلاطي بهؤلاء الرجال اكتسبت رذيلة أخرى هي الكبرياء الشديدة والاعتقاد الغريب في مهنة تعليم الناس دون أن أعرف ماذا أعلم ....

هكذا عشت سنوات ست في هذا الجنون حتى تزوجت وفي هذه

الأثناء سافرت إلى الخارج. فاقنعتني الحياة في أوروبا واتصالى بالزعماء والعلماء من الأوربيين أن أؤمن بما كنت أعتقده من محاولة الوصول إلى الكمال إذ وجدت تلك العقيدة فيهم. وقد اتخذت هذه العقيدة الشكل الذي تتخذه لدى العدد الأكبر من المتعلمين في هذا الزمن وهي التي يعبر عنها بكلمة التقدم. وكان يبدو لي عندئذ أن لهذه الكلمة معنى، ولم أكن قد فهمت بعد أني وقد شغلت، ككل إنسان ذي شعور، بالبحث عن خير وسيلة للحياة كنت أقول لنفسي: يجب أن أعيش وفاقا للتقدم. وكنت كرجل في قارب حملته الرياح والأمواج وسئل السؤال الأول والوحيد إلى أين يسير؟ فأجاب اننا نحمل إلى مكان ما.

لم ألاحظ عندئذ ذلك بل كنت أحيانا أثور، بالغريزة لا بالعقل، على هذه الخرافة المنتشرة في أيامنا والتي يخفي الناس وراءها عدم مقدرتهم على الفهم. فعلى سبيل المثال عندما كنت في باريس شهدت تنفيذ حكم الإعدام، فثبت لدي عدم استقرار عقيدتي الخرافية في التقدم؛ إذ عند ما رأيت انفصال الرأس عن الجسد وسمعت صوت سقوط كل منهما في الصندوق فهمت لا بعقلي بل بكل تكويني، أنه لا يمكن أن تكون نظرية تفكيرنا في تقدمنا الحاضر أن تسوغ هذا العمل ...

ثم مضت خمس عشرة سنة من حياتي بالرغم من أني صرت أعتبر

التأليف أمرا قليل الأهمية ظللت مدة هذه السنوات أضع الكتب. فقد ذقت حلاوة التأليف وما فيه من مكافآت كبيرة مالية وما فيه من إعجاب كبير بعمل صغير. ووقفت وقتي عليه كوسيلة لتحسين مركزي المادي والقضاء في نفسي على كل تساؤل عن معنى حياتي أو معنى الحياة بصفة عامة.

وكتبت أعلم الناس ما كان يظهر لي أنه الحقيقة الوحيدة وهو أن يعيش الإنسان بحيث يضمن لنفسه ولأسرته خير ما يصل إليه من وسائل العيش.

هكذا عشت، ولكن منذ خمس سنوات بدأ يحدث إلى أمر عجيب .. شعرت في مبدأ الأمر بلحظات من القلق ووقف الحياة كأني كنت لا أعلم كيف أعيش ؟ولا ماذا أعمل؟ وكأني تائه في تدبير أمرى فأشعر بانقباض غير أنه كان يزول. وأعود إلى حياتي كما كنت من قبل. ولكن هذه اللحظات من الحيرة أخذت تتزايد على هذا النحو دائما ويمكن التعبير عنها بهذين السؤالين لماذا هذه الحياة وإلى أين تؤدي بي؟ ....

لقد ذهبت الخدعة التي كنت أجدها في لذات الحياة ومهما قيل لي إنك لا تستطيع أن تفهم معنى الحياة فاترك التفكير فيها واستمر في معيشتك كنت لا أستطيع ذلك. فقد عشت طويلا ولم أعد أستطيع إلا أن أرى النهار والليل يختلفان وهما يقتربان بي إلى الموت، ذلك كل ما أراه وذلك هو الحقيقة الوحيدة وكل ما عداه كذب. إن نقطتي

العسل اللتين كانتا تشغلان نظري عن الحقيقة القاسية وهما حب الأسرة وحب الكتابة أو الفن كما أسميه لم تعدلها حلاوة لدي ....

ولكني قلت لنفسي مرات عدة ربما إني غفلت عن شيء أو لم أفهم شيئاً. فليس من المستطاع أن يكون هذا اليأس طبيعياً لدى الإنسان. وحاولت أن أجد جوابا لمشاكل في جميع فروع المعرفة التي كسبها الناس. وبحثت طويلا بحثا متعبا لا لمجرد الفضول ولم أبحث في فتور بل بحثت في استمرار بحثاً ممضاً ليلاً ونهاراً –وبحثت كما يبحث الغريق عن النجاة– فلم أجد".

وعلى هذا النحو يصف وصفاً ممتعاً كيف التجأ إلى العلوم يبحث فيها ليجد جواباً لهذا السؤال الذي كاد يؤدي به إلى الانتحار، فبحث في العلوم النظرية ثم بحث في العلوم التجريبية فلم يجد جوابا لسؤاله، فكأنه رجل ضال في غابة يتسلق إحدى الأشجار فيشرف منها على الأشجار الممتدة ولكنه يرى أن مقامه ليس هناك، ثم ينزل إلى ظلام الغابة فتقصر دائرة رؤيته ويرى كذلك أن مقامه ليس هناك، ثم يأخذ في دراسة الفلاسفة ويبحث عن رأي سقراط وشوبنهاور وسلمان وبوذا فماذا يقول سقراط "إننا نقترب من الحقيقة كلما أخذنا في مفارقة هذه الحياة؟ إذن ماذا نجري وراءه في هذه الحياة نحن الذين نريد الحقيقة؟ هو أن نتخلص من الجسد. فإذا كان ذلك هو الأمر فلماذا لا نكون راضين إذا ما جاءنا الموت؟".

العاقل يبحث عن الموت طول حياته وكذلك ليس الموت فظيعاً لديه.

أما تولستوي الذي يرى أن الطبيعة الداخلية للعالم هي الارادة، وأن كل مظاهر الطبيعة إن هي إلا مظهر لهذه الإرادة، فيرى أن الرغبة في الحياة إن هي إلا إرادة هذه الحياة، لذلك كان القضاء على هذه الارادة معناه العدم، وأن الفقراء من بني الإنسان الذين أقلعوا عن الرغبة في الحياة يكون هذا العالم لديهم بشموسه ونجومه كأنه العدم.

"وأما سليمان الحكيم فيرى أن كل ما في الحياة خداع وغرور، فأية فائدة للإنسان من كل ما يعمله تحت هذه الشمس؟ يذهب جيل ويأتي جيل والأرض قائمة إلى الأبد. وما كان، هو ما سوف يكون، وما عمل هوما سوف يعمل، وليس تحت الشمس من جديد ....

الأحياء يعلمون أنهم سيموتون والأموات لا يعرفون شيئاً وليس لهم من جزاء لأن ذكراهم سوف تنسى وقد ذهب حبهم وكراهيتهم وحسدهم، ولم يبق لهم نصيب في أي شيء فيما تحت الشمس.

تروي الحكمة الهندية أن سكياموني، وهو أمير شاب سعيد، لم يكن يعرف المرض ولا الكهولة ولا الموت. وخرج ذات يوم فإذا به يرى شيخة فقد أسنانه وتعثر في مشيته. فسأل سائق عربته من هذا وكيف وصل إلى هذه الحال؟ فلما علم أن ذلك مصير جميع الناس أمر بالعودة إلى قصره ليفكر في هذا الأمر. ومكث أياما لا يرى أحداً، ثم

لعله وصل إلى حل يطمئن إليه فعادت إليه سعادته. وخرج مرة أخرى للنزهة فرأى مريضا فلما سأل ما خطبه علم أن ذلك قد يكون مصير الناس فعاد توا لقصره واحتجز نفسه أياماً ثم رجعت إليه بشاشته، وعاد للخروج مرة ثالثة فرأى رجالاً يحملون شيئا فسأل ما هذا قيل رجل ميت فسأل ما معنى ميت؟ فقيل له أن يصير الإنسان مثل هذا الرجل، فاقترب الأمير من الجثة وكشف عنها ونظر إليها وسأل ماذا يحدث لهذا الإنسان؟ قيل سيدفن في الأرض، فسأل لماذا؟ قيل لأنه من المؤكد ألا يعود للحياة وستأكل جثته الديدان فسأل الأمير هل هذا مصير كل الناس؟ وهل يحدث هذا لي وتدفن جثتي وأكون غذاء للديدان؟ فلما أجيب بالإيجاب قال عودوا إلى القصر فلن أخرج إلى النزهة بعد اليوم وتقرر لدى سكياموني أن الحياة هي أكبر الشرور وعمل على أن يتحرر من قيودها ويحرر غيره، حتى لا تجدد الحياة بعد اليوم بل تدمر إذن هذا هو الجواب ولا فائدة من الخداع، إن كل شيء باطل وسعيد من لم يولد والموت خير من الحياة. ويجب أن نتخلص منها".

أخذ تولستوي ينظر حوله ليرى كيف يطمئن الناس إلى الحياة ويخدعون أنفسهم؟ فإذا هم أحد أربعة: جاهل لا يرى في الحياة شر بل يعتقد أن فيها كل الخير وأكثر هؤلاء نساء وشبان طائشون. ورجل لا يبتغي من الحياة إلا التمتع بألوانها وهو عالم بمصيره فيها وهؤلاء هم

السواد الأعظم من أبناء طبقة تولستوي. وفريق ثالث يتبع طريق القوة والعمل المجدي إذا ما تبين له أن الحياة شر فيتخلص بحبل حول الرقبة أو بغير ذلك من وسائل الخلاص ويقضي على نفسه ولكن عدد هذا الفريق قليل جداً. ولقد حاول تولستوي نفسه أن يتبع هذا الفريق ولكنه عدل للسبب الرابع الذي ذكره وهو شأن الضعف، فهذا الفريق يرى سخرية الحياة وحقيقة موقفه منها ولكنه يتشبث بها وكأنه ينتظر أمراً. وذلك ما حدا به إلى أن يفكر، ويفكر لقد أدى به العقل إلى أن الحياة أكذوبة وزعم باطل كما أدى بكثيرين من قبل إلى هذه النتيجة. على أن العقل هو ثمرة الحياة وان كان العقل يرفض الحياة نفسها، فلماذا إذن يعيش ملايين من الناس هل هم يعيشون بالعقل؟ الواقع لا، بل هم يعيشون بالإيمان وهو يقول "كيفما قلبت هذا السؤال كان الجواب واحداً: كيف أعيش؟ أعيش وفاقا لقوانين الشريعة الربانية. وما هي النتيجة الحقيقية لهذه الحياة؟ إما العذاب الأبدي وإما السعادة الأبدية فما المعنى الذي لا يقدر الموت أن يقضى عليه من الحياة؟ الاتصال بالرب الأبدي. إذن فإلى جانب الاستنتاج العقلي توجد معرفة لا تخضع للعقل وهي الإيمان، وهذا الإيمان لا يوجد عند الجماعة الذين يلقبون أنفسهم بالمثقفين ولكنه يوجد عند العامة من الناس".

وهكذا بدأ تولستوي يتصل بالفقراء والبسطاء وعامة الناس ويجد

فيهم الرجال الذين يملأ قلوبهم الإيمان حقاً والاطمئنان إلى مصيرهم في هذه الحياة أو في الحياة الأخرى. وإذا كان المثقفون يديمون الشكوى من الأمراض وكل ما يعترض حياتهم من الأحزان والآلام فهؤلاء المساكين يقبلون المرض والألم دون تململ أو اعتراض. وهكذا عرف كيف يحب هؤلاء الناس ويجلهم؟ ويتبين له أن لا فائدة في البحث عما هي الحياة، بل يجب أن يطمئن إليها راضياً ويقبلها مطمئناً.

الفصل التاسع

نزعة إلى الدين

من البين أن تولستوي حين شعر بهذه الأزمة التي انتابته ووصفها وصفة رائعة في اعترافاته عزم على الإقلاع عن كتابة قصصه العظيمة التي رأى فيها هراء لا طائل من ورائه ولا نفع، وقد اتجه بأفكاره نحو الدين وأقبل على الكنيسة وأخذ يزاول طقوسها لا تفوته صلاة، وأخذ يقصد زيارة أضرحة الأولياء المشهورين كما أقبل على تلاوة الكتب الدينية، على أنه بقي بادي القلق مهموماً واتجه في الدين اتجاهاً غريباً. واضطربت زوجته لما رأته من تغيير حالته وكانت تصفه في تلك الأيام بأن نظرته صارت غريبة وثابتة، وكانت تعجب لأمره وتسأله: لقد كنت فيما مضى قلقاً لأنك كنت بعيداً عن الإيمان فلماذا وأنت الآن مؤمن أراك غير سعيد؟

وكانت الكونتيسة غير راضية لعدوله عن كتابة تلك القصص العظيمة التي رفعته إلى قمة الشهرة في بلاده وجعلته من أكبر كتاب العالم، وكانت ترجو وهو لا يزال في عنفوان قوته العقلية أن يستمر في تأليف القصص فيزيد مجداً على مجد، ولكنه اتجه إلى مباحث دينية عجيبة لا يمكن أن تكون لها الأهمية إلا لدى المختصين وقد كتبت إلى أختها تصف انكبابه على القراءة وبحثه وتنقيبه عن الكتب التي تعني

بهذه المباحث والجهد الذي يبذله "وكل ذلك ليثبت أن الكنيسة لا توافق الرسالة المسيحية، مع أنه لا يكاد يوجد في روسيا عشرة أشخاص يهتمون بهذه المباحث. ولكني لا أستطيع أن أعمل شيئاً وكل ما أرجوه أن ينتهي من هذا الطور في أقرب وقت وأن تزول هذه الحالة كما تزول الأمراض". هكذا تكتب هذه السيدة مع أنها كانت تقية محافظة على شعائر الدين، وهكذا وضع تولستوي مبحثيه الكبيرين في نقد الفلسفة الدينية الرسمية والمقارنة بين الأناجيل الأربعة وتراجمها.

* * *

في ذات مساء من شهر مارس سنة ١٨٨١ كان تولستوي واقفاً في الطريق العام كعادته يتحدث إلى المارة القلائل الذين يطرقون هذا الطريق. وإذا سائل قادم من مدينة تولا ينبئه نبأ جديداً هو أن القيصر اسكندر الثاني قد قتل وكان هذا الخبر صحيحاً فإن القيصر خرج في عربة مكشوفة ليشهد عرضاً للحرس، فإذا شخص يتقدم ويلي لفافة ورق تحت أقدام الجياد فيدوي صوت انفجار هائل وتصاب الجياد وبعض رجال الحرس. ونزل القيصر من العربة دون أن يصاب بشيء وعرض عليه بعض أتباعه أن يركب عربة أخرى في الحال ويتابع سيره ولكنه أبى إلا أن يرى الجاني الذي قبض عليه في تلك اللحظة. وحينئذ ألقى شريك الجاني بقنبلة ثانية فتكت بالقيصر وحمل إلى قصره في حالة سيئة حيث مات في تلك الليلة.

كانت روسيا قبل قتل القيصر في اضطراب سياسي ناشئ من نزاع دوي الآراء الحرة والمحافظين، وكان تولستوي منهمكاً في اضطرابه الديني فلم يكن يعنى بالأمور السياسية، ولكن هذا الحادث أيقظه من سباته وأخذ يفكر في مصير الجناة وما ينتظرهم من عقاب، فإذا به يمسك القلم ويكتب في الحال رسالة إلى القيصر الحديد يرجوه فيها أن يعفو عن قاتل أبيه، وفيها يخاطب القيصر الجديد بصراحة عجيبة قائلاً: إني أوجه إليك رجاء رجل الرجل، ثم يشير عليه ألا يصغي إلى وزارئه ورجال حكومته وأن يقلع عن فكرة الانتقام وأن يتبع شريعة العفو التي قال بها المسيح ويقول. "إنك يا مولاي لو فعلت ذلك ولو دعوت هؤلاء الرجال وزودتهم بالمال وأرسلتهم إلى بلاد بعيدة مثل أمريكا ثم تصدر إعلاناً بذلك مبتدئاً بالعبارة: إني لأدعوكم إلى محبة أعدائكم، فإني لا أعلم تأثير ذلك لدى الآخرين ولكني أنا، على قلة شأني، سأصير بمثابة الكلب لديك وأصير عبدك ...

إن كلمة العفو وإعلان المحبة المسيحية من أعلى العرش مما يفتح طريق الحكيم المسيحي أمامك انتظارا لمرورك وهذا العمل منك يقضي على جميع المساوئ التي تتألم منها روسيا، ويذوب النضال الثوري كما يذوب الشمع في النار أمام القيصر والرجل الذي يعلى شريعة المسيح".

أرسل تولستوي هذه الرسالة العجيبة إلى رئيس المجمع المقدس ليرفعها إلى القيصر، وكان رجلا مثقفاً يجل الأدباء لاسيما دستويفسكي، ولكنه كان أيضاً رجلاً محافظاً يحترم القانون، ومن الطبيعي أن يحتجز الرسالة إلى أن أعدم المتآمرون ثم أعادها إلى تولستوي، وكتب إليه قائلاً : "إني لم أحجزها إساءة في حقك ولا عدم اكتراث بها، ولكني رأيت أن عقيدتك في جهة وعقيدتي وعقيدة الكنيسة في جهة أخرى".

ويقال إن القيصر علم بالرسالة عن طريق آخر فأبلغ تولستوي أنه كان يغتفر هذا الاعتداء لو وقع عليه ولكنه وقع على أبيه فلا يستطيع أن يعفو مهما يكن الأمر، فالواقع أن هذه الرسالة لا يمكن أن تنتج نتيجة في مثل تلك الظروف، وهي أن دلت على شيء فعلى انصراف ذهن كاتبها في ذلك الحين إلى نزعته ومباحثه الدينية دون تقدير لمجرى الحياة، والشيء الوحيد الذي يستخلص منها هو أن تولستوي كان إذا خطرت له فكرة أبدي شجاعة عجيبة في التمسك بها والإعلان عنها دون أن يتقيد بملائمة الظروف، وكان من الطبيعي أن الحرب الخفية القائمة في روسيا بين النظام الرجعي والحركة الثورية العاملة على تحرير الأمة تقضي بألا ينتظر هؤلاء الثوار عفواً، كما أنهم أقدموا على اقتراف كل جريمة في سبيل تنفيذ أغراضهم.

تولى القيصر اسكندر الثالث عرش روسيا على أثر جريمة، فكان

من المنتظر أن يشتد ساعد الرجعية في البلاد وأن ينكب بعد الجريمة أرباب الآراء الحرة. وكان نفوذ رجال الكنيسة الأرثوذكسية في البلاد كبيراً، واشتدت رقابة الشرطة على الناس وزاد عدد الجواسيس زيادة كبيرة وصارت الأحكام بالنفي والاعدام تصدر لأقل هفوة. وكان الرجعيون يرون أن أكبر الشر آت من أرباب القلم والمفكرين؛ ولذلك اشتدت الوطأة عليهم وفي مقدمتهم. ذلك النبيل الذي لا يسلك مسلك النبلاء في تأييد الرجعية بل يعبر عن آراء خطرة يمجد فيها عامة الناس ويشيد بفضائلهم كما يعيب أبناء طبقته ويعدد مساوئهم؛ لذلك منع الرقيب الديني نشر اعترافات تولستوي عندما أراد نشرها على أنها كانت تنقل وتوزع وهي مخطوطة، وفي كتابه الثاني المسمى "عقيدتي" لم يستطع تولستوي أن يحصل على ترخيص بنشره ونشر طبعة خاصة لأصدقائه، ومع ذلك صادرت السلطات هذه الطبعة، ولكنها لم تقض بإتلافها بل أرسلتها إلى بطرسبرج حيث تخاطفها الكبراء من الموظفين وصاروا يقرؤونها ويتناقشون بشأنها فيما بينهم.

قد يقال إن تولستوي لم يكتب رسالته إلى القيصر انتظاراً لنتيجة عاجلة أو آجلة وإنما أراد بها مجرد الشهرة والظهور، وذلك تفسير قد يتفق مع رأي الكتاب الذين رسموا له صورة فيها الكثير من السخرية، ولكن الواقع أن تولستوي كان جاداً في عمله وكان إذا استولت عليه

فكرة أظهرها ونادي بها دون أي اعتبار آخر أو تقدير للظروف المحيطة به، وكان هذا شأنه لا في آرائه وحدها بل في تصرفاته.

لذلك نراه بعد شهرين من هذا الحادث يفكر في الحج إلى دير أوبتينا بولين، فيقوم مع تابع ومع مدير مدرسة قريبة وقد اتخذ ملابس الفلاحين فارتدي قفطانا طويلا، واحتذى نعلا في قدميه العاريتين، وسافر الجماعة إلى هذا الحج سيرا على الأقدام. وما انقضى يوم على سيرهم حتى كانت أقدام السيد قد تسلخت حيث لم يألف لبس النعال في قدم عارية واضطر في أول مدينة وصلوا إليها أن يشتري جورباً كما اشترى حزاماً من الصوف لوقاية جسمه. وكان تابعه يحمل حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس النظيفة. وظلوا في رحلتهم الشاقة أربعة أيام ووصلوا في مساء اليوم الرابع إلى الدير. ولم يفطن رجال الدير لهم فأنزلوهم مع السائلين وأبناء السبيل وسر تولستوي لذلك غاية السرور ولكن لسوء حظه كان نومه مع صانع أحذية في غرفة واحدة، وكان الرجل كثير الشخير فلم يستطع الكونت أن ينام وأشار إلى تابعه بأن ينبه الرجل. ولما علم الرجل السر في إيقاظه غضب وصاح: أتريد ألا أغمض عيني من أجل صاحبك الشيخ؟

وفي اليوم التالي سرت اشاعة بأن الكونت تولستوي بين زوار الدير فبحث عنه الرهبان واكتشفوا أمره، وعلى أثر ذلك دعي إلى العشاء مع رئيس الدير، واضطر إلى أن يرتدي ملابس نظيفة، وبعد

العشاء واصطحبوه إلى غرفة نوم عظماء الضيوف، وكانت حوائطها مغطاة بالحمل وفيها قضي ليلته وعاد في يومه التالي بالقطار.

* * *

ظل تولستوي ردحاً من الزمن ينتقد الكنيسة ويريد أن يرجع بها إلى بساطة الدين في عصره الأول، وأن تتخذ الكنيسة تلك الآيات البينات في الإنجيل على حرفيتها دون تأويل أو تفسير ودون ملاءمة بينها وبين الحياة الحاضرة وتشعبها، أو بعبارة أخرى يريد أن تنزل الكنيسة عن مركزها وسلطانها وسيطرتها في الدولة منذ قرون. وكانت حملته شديدة على الطقوس الدينية ولكنه ظل مع ذلك محافظاً على صلواته وصيامه، على أنه لم يلبث أن اعتقد بأنه لم يعد يستطيع أن يقتنع بالصلاة والصيام وهذه الطقوس، ففي ذات يوم كان في صيامه فإذا هو يمد يده إلى طبق اللحم الموضوع أمام أولاده الصغار، وكانت تلك الحركة بمثابة إعلان الحرب بينه وبين الكنيسة الروسية.

الفصل العاشر

الظلم الاجتماعي

سار تولستوي في الطريق الذي دفعه إليه تفكيره فوصل إلى نتيجة عجيبة هي أن حياة الفلاح الجاهل خير حياة وأبعدها عن الشرور، وأن الشر في حياتنا الاجتماعية إنما هو ناشيء عن ذلك الشك الملازم للمعرفة والبحث مما تعارف الناس على تسميته بالثقافة. وهذه الثقافة هي التي يستطيع أن يحصل عليها طبقة من الناس أوتوا الغنى وسعة الرزق، إما عن ميراث قديم وإما عن مجهود بذلوه في اقتناص الثروة من أيدي المنتجين الحقيقيين وأمكنهم بالمال أن يسيطروا على هؤلاء المنتجين الذين هم أجدر منهم بالرزق. وصل إلى هذه النتيجة في تفكيره ولكن ماذا عمل بنفسه بعد أن عرف هذه الحقيقة؟

إنه يعتقد أن المال الذي يتمتع به مال مغتصب وأنه لم يبذل مجهوداً في سبيله بل ورثه عن الآباء ولا ريب في أن الأب الأول الذي اقتنى هذه الضياع قد استولى عليها عنوة بمجرد القوة وحرمها أناس أضعف منه، وأن الآباء الذين جاءوا بعده استعملوا الناس وسخروهم في زيادة هذه الثروة، والآن وقد اكتشفت هذه الحقيقة ماذا يفعل لإصلاح هذه الحال؟ تلك هي المسألة التي وقف عندها تولستوي لا يدري ماذا يفعل؟

الدم الذي يجري في عروقه، دم كبراء الأشراف الذين عرفوا عصر إيفان الفظيع، ثم عاشروا أسرة رومانوف منذ تولت عرش القياصرة ان يناديه بأنه سيد عريق المحتد يجب أن يبقى سيداً، ويحتفظ بكل مظاهر الحاه اللائقة بنبيل مثله، وإذا كان العقل يملى غير ذلك، فهل يغير العقل في لحظة ما بناه الحسد أجيالا؟

كل ما استطاع أن يفعله حتى الآن هو أن يختلط بحياة فلاحية اختلاطاً يقابله هؤلاء في الظاهر بالغبطة، ولكنهم يقابلونه في الباطن بالحذر. ألم يرثوا هم أيضا منذ قرون وراثة غريزية أن السيد لا يتودد إليهم إلا لغرض هو الرابح فيه وهم الخاسرون؟ إن هذا السيد ظل يقحم نفسه في حياتهم ولكنه لا يزال يسير سيرة النبلاء في حياته، وكل ما عمله من عمل إيجابي حتى تلك اللحظة، إنه أهمل واجباته كرئيس لأسرته وسيد على ضياعه، ومع ذلك نراه يحاول دائماً أن يقنع نفسه أنه قائم بواجبه الإنساني الجديد. ففي تلك السنة التي انتابته فيها هذه الأزمة النفسية يسافر إلى تولا، عاصمة المقاطعة التي تقع فيها أملاكه ليشهد منظراً تعيساً هو منظر المنفيين، ينقلون من سجنها إلى سيبيريا، وبذلك يزداد اطمئنانه إلى سوء النظام القائم. ولكن ألم يكن يمازج هذا البحث حب الاستطلاع والفضول الذي يجده السادة الذين لا عمل لهم؟

ومع ذلك لماذا نذهب بعيداً؟ ألم يأته في ليلة فلاح مريض محمول إلى قصره فلا يبلغ السيد الخبر حتى ينتهي من الطعام؟ نعم غضب

السيد لذلك، ولكن ما فائدة غضبه إذا كان لا يستطيع أن يعمل شيئاً؟ إنه في حيرة من أمره لا يدري ماذا يعمل خير لهؤلاء الفلاحين، ولكن في تلك اللحظة تنبته زوجته في حزم أن واجبه الأول هو التفكير في خير أولاده؛ فقد بلغ كبار أطفاله سنة ينبغي لهم فيها أن يدخلوا المدارس الكبيرة، ولذلك يجب على الأسرة أن تنتقل إلى موسكو وتقلع عن معيشها في الضيعة إلا في شهور الصيف. ومن الطبيعي أن يخضع الفيلسوف لهذا الأمر، على أنه قبل هذا الانتقال يشعر بتعب في صحته، ولعل جزء من هذا الشعور بالمرض ناشيء من تفكيره في المتاعب المادية للانتقال، ولذلك يقرر في صيف ذلك العام أن يذهب إلى الضيعة التي اشتراها في أقاليم الجنوب ليتداوى بلبن الأفراس ومعه بعض أولاده. وفي أثناء إقامته يبحث عادات تلك القبائل التي تعيش في جنوب الفولجا ويتصل بفريق ديني يعرف باسم الملكانيين، لهم في بعض طقوس المسيحية رأي خاص. ثم يعود بعد ذلك من مصيفه إلى ضيعته ثم إلى موسكو حيث اتخذت الأسرة منزلاً واسعاً انتقلت إليه مصحوبة بالخدم والحشم وخصصت للفيلسوف غرفة كبيرة، ولكنه لا يجد فيها ذلك الهدوء الذي كان يجده في قصره الريفي. وقد أخذت الكونتيسة ترتب حياة المنزل حسب مشيئتها وما يتطلبه مركز الأسرة، فهي تحدد يوماً لزياراتها تستقبل فيه الزائرين من أهل طبقتها، ويخضع الفيلسوف إلى حد أن يمضي أوقات في استقبال الزائرين، وخضع

الفيلسوف إلى حد أن ارتدي ذات مرة ملابس السهرة، وذهب إلى حفلة اجتماعية كانت ابنته ستظهر فيها لأول مرة، إذ بلغت السن التي يسمح فيها لأمثالها من الفتيات بارتياد هذه الحفلات. وخضع الفيلسوف لواجبه كرب للأسرة، فذهب إلى المدارس يتفق معها على قبول أولاده. ولكنه كان مع ذلك ثائراً في أعماق نفسه على هذه الحياة، فهو من بعد ظهر اليوم يرتدي ملابس بسيطة ويتسلل من المنزل حيث يسير طويلاً في التلال والغابات المحيطة بالمدينة، كي يستطيع مخالطة العمال والعامة والتحدث إليهم.

هالته مناظر البؤس والشقاء في المدينة الكبيرة أضعاف ما هاله في الريف، فالبؤس مهما يكن شديد الوطأة في القرى، فإن مظاهره دائماً مختفية في القرية تحت ثوب الاستسلام والرضا بما حكمت به الأقدار؛ وهو دائماً يختفي في الأكواخ لا يبين إلا للعين الفاحصة المتطلعة. أما البؤس في المدينة فهو سافر، تراه في تلك المحافل من العمال تسير في غير هدى تسعى لغير عمل، أو تكد لعمل ضئيل، وفي وجوهها علائم الفقر مرسومة، وأكثر منها علائم القلق إذ هي لا تأمن شر الغد. وترى البؤس في المئات من الرجال والنساء ذوي الأسمال البالية يمدون أيديهم للمارة يستجدوهم بضع دريهمات، وتراه في أولئك الأطفال أجسادهم تكاد تكون عارية وهم لا يعرفون لهم مأوى، ويعيشون على ما يرميه الناس من مأكل، وأسعد ليلة عندهم هي التي يجدون فيها

ركن من أركان أحد الأبواب، يستترون فيه من برد موسكو القارص.

كانت هذه المناظر تحز في قلب الفيلسوف أكثر مما رآه من مناظر رثى لها في بيئته الأولى، وكعادته كان يفكر في استجلاء السر في هذا الشقاء وكيف السبيل إلى القضاء عليه.

ومن الطبيعي أن يكون برماً بحياته في المدينة على اتساعها وهو الذي ألف العيش بين فلاحيه، وعرف كيف يخدمهم بعض الشيء، ولذلك نراه بعد بضعة أشهر يشعر بتعب من هذه الحياة، فيقصد زيارة صديق في جنوب روسيا، على أنه كان يرمي إلى غرض آخر هو زيارة ذلك الرجل الذي سمع عنه في الصيف حين زار ضيعته في الجنوب، وكان اسمه سوتايف وهو فلاح أوتي الحكمة، واعتقد فيه أهل تلك الفرقة المسيحية التي ذكرناها اعتقاداً راسخاً.

زار تولستوي هذا الرجل وأعجب به، فدعاه إلى زيارته في موسكو، فلم يتردد الولي في انتهاز الفرصة، وما مضت بضعة أشهر حتى كان مقيماً في منزل الكونت بلباسه العجيب من جلد الماعز، وكان هذا الرجل أول أولئك الغرباء الذين أخذوا يفدون على الكونت ويستفيدون بضيافته، وكانت الزوجة المسكينة التي لا تحفل بمباحث زوجها تتبرم بهم. وقد أطلقت عليهم اسماً إذ لقبتهم بالغامضين.

دخل سوتايف منزل الكونت الفيلسوف وهو يعتقد أنه ند لمضيفه، كما أن المضيف كان يعتقد أن هذا القروي ند له. وكان منظر

سوتايف مثاراً للدهشة في الأوساط الاجتماعية من النبلاء وكبار القوم الذين اتصلت بهم الكونتيسة، وعندما ترامت أخباره إليهم بدأوا يسألون عنه، فكان الكونت يدعوه ببساطة لمقابلة هؤلاء القوم وكأنه كان يعتقد أنهم قد يتأثرون به ويؤمنون بنظرياته، وكان هؤلاء النبلاء يتسلون بتوجيه الأسئلة إلى هذا الولي يستطلعون رأيه في الأمور الاجتماعية فيجيبهم في صراحة برأيه، فمثلاً أبدى سوتايف ذات مرة استهجانه لعادة اعطاء السائلين بضع دريهمات، فسئل إذن كيف يكون الإحسان؟ فأجاب هو أن يلتقط الواحد منكم هذا الفقير ويؤويه في داره كما يؤوي أحد أفراد أسرته، وليأخذ كل منكم عدداً من الفقراء، أكبر عدد ممكن ويؤويهم في داره. هكذا يكون العمل المفيد.

ذاعت شهرة سوتايف وتقاطر كبار القوم على دار الكونت تولستوى ليشاهدوه. وكسبت الكونتيسة كسباً اجتماعياً بأن صارت حفلاتها مزدحمة بالناس، وصارت هذه الحفلات تعرف بين أعضاء الهيئة الاجتماعية باسم ليالي سوتايف؛ فذعر حاكم المدينة من ذلك الموكب الطويل من العربات التي تقصد دار الكونت تولستوي، وخشي الفتنة، فأرسل ضابط يستطلع الخبر، وغضب تولستوى لذلك غضباً شديداً، إلا أن الخطوة التي خطاها الحاكم لم يكن لها ذيول، لأن سوتايف لما رأى أن الأمر قد بلغ إلى هذا الحد أسرع بالرحيل إلى بلاده.

أثرت مناظر التعاسة في تولستوي تأثيراً عميقاً، فاتجه بمجامع قلبه إلى دراسة أسباب تلك التعاسة وأخذ يقيد رأيه في العلاج الذي يراه وأعلن هذا الرأي فيما بعد في كتابه "ماذا علينا أن تفعل إذن؟" وهو في هذا الكتاب يصل إلى النتيجة التي يلخصها في قوله: "إني عندما أرى الآلاف من بني الإنسان في مخالب الجوع والبرد والانحطاط أفهم، لا بعقل ولا قلب، بل بمجموع ما في من حياتي، إذ أنا وآلاف من أمثالي يأكلون أكثر من حاجتهم من طري اللحم والسمك، ويغطون دورهم بالأقمشة والسجاد، ومهما يقل علماء العالم بضرورة ذلك، فإن وجود الآلاف من الجائعين في موسكو هو جريمة ترتكب لا مرة بل دائماً، وإني بما أنا فيه من ترف لا أحتمل هذه الجريمة فحسب بل اشترك فيها.

هذا كان شعوره وهكذا كان تولستوي لا يستطيع أن يصبر على رؤية هذه التعاسة، ولا يكاد يرى شيئاً لا يرضى به عقله وقلبه حتى يصيح مستنكراً.

ولقد حدث بعد سنة من إقامته في موسكو أن قررت الحكومة تعداد السكان، فكتب إليها متطوعاً في العمل بحي سمولنسك وهو من أفقر أحياء المدينة، وقد أراد بذلك أن يرى كيف يعيش سكان هذا الحي وإلى أي حد ينحط الناس نتيجة الأعمال – الحكومة واستغلال الإنسان للإنسان– وكم من مناظر فظيعة شهدها وأسر تعيش في

أكواخ حقيرة تأبى الحيوانات أن تأوي إليها. وقد وصف حالة الجهل والذعر في هؤلاء الناس حين قال "كانوا إذا ما رأونا يفرون حتى يتبين لهم أننا ما جئنا إلا لمجرد التعداد فيظهرون لنا دهشين، وهم ينظرون إلينا نظرة الأرانب رأت كلاب الصيد قد تحولت إلى عمال للتعداد".

من تجاربه في هذا التعداد عرف الشقاء الحقيقي، فليس هؤلاء الناس الذين يقفون في الطرقات يستجدون المارة هم الفقراء حقا الذين هم في حاجة إلى المعونة، بل الفقراء والتعساء هم ثلاثة أنواع. العاهرات والأطفال وأولئك الذين انحدروا في سلم الحياة وهم أكثر التعساء عدداً، وهم الذين يصعب أن يوصف بشأنهم علاج ولا يمكن تغيير مركزهم إلا بتغيير أساسي في الحياة الاجتماعية، أما العاهرات فيمكن معالجة حالتهن بتغيير الفكرة القائمة نحو المرأة، وأما الأطفال فيكون ذلك بتربيتهم على ضرورة العمل.

فالحالة الاجتماعية بأكملها يجب أن تتغير، ويجب أن يشعر الناس بلذة العمل بدلا من أن يكون هدف الجميع فقراء وأغنياء الوصول إلى اللذة والتمتع من غير جهاد، وبذلك يسعى الفريق القادر على أن يسخر الآخرين في العمل الذي يسعى أن يتخلص منه.

وقد بدأ يشعر أخيراً أن الإحسان ليس هو الوسيلة لمساعدة الفقير، بل الوسيلة لذلك أن نعلمه العمل وتمهد له سبيله، وكيف نستطيع أن يمهد له ذلك إذا كان الفاصل بينه وبين الفقراء كبيرة، وإذا

كان الغرض الأول الذي يرمي إليه الرجال من أبناء طبقته هو أن يتملكوا من المال أكثر ما يستطيعون!

إنه إذا أراد مساعدة الفقير حقاً فعليه أن يرفض الاشتراك في ذلك النظام الاجتماعي الذي يضحي بالسواد الأعظم من الناس في سبيل تمتع القلائل، فهو يرى أن المال أساس الشر مهما حاول الاقتصاديون تسويغ التملك "فما دامت الهيئة الاجتماعية قائمة على تسخير إنسان آخر فإن معنى المال كواسطة لتبادل المنتجات الناشئة عن العمل، ليس إلا أنه خير وسيلة لاستغلال مجهود الاخرين" فهل للرق معنى آخر غير ذلك؟ "إن استعباد إنسان آخر قائم دائما على أن هذا الرجل يفرض على الآخرين الخضوع لإرادته ... فإذا كان إنسان يعطي نتاج عمله للآخرين دون أن يحصل على ما يكفيه من غذاء، وإذا كان يسلم أطفاله العمل المرهق، وإذا كان يترك الأرض ويرصد حياته لعمل كريه في سبيل اخراج أشياء لا رغبة له فيها كما يحدث أمام أعيننا في العالم (وهو العالم الذي نسميه متمدناً لأننا نعيش فيه) فنكون صادقين إذا قلنا إنه يقوم بهذا العمل فقط لأنه مهدد بالموت إذا لم يحمله".

للاستعباد ثلاثة طرق أولها التهديد ثم العنف ثم الإجبار بأن تنتزع من الجماهير الأرض ومخازن الطعام ثم بأن يطلب مهم تسديد ضرائب لا يستطيعون الوفاء بها، ولكي يستطيعوا سدادها يقعون في الرق.

وهذه الطرق الثلاث جربت وتجرب على الفقراء واحدة بعد أخرى، فإذا عدل عن واحدة لجأ أصحاب السلطة إلى الطريقة التالية، وما يساعد على قبول الجماهير لهذا الاستعباد نظريتان: ما يسمونه بالدين الذي ينصح لهم بالعمل في خدمة أولى الأمر، وما يسمونه بالعلم الذي يقول إن واجب الإنسان نحو الدولة هو أهم من واجبه نحو بني جنسه، وإنه من الواجب إجباره على العمل في سبيل الدولة إذا امتنع عن ذلك، فترى حينئذ أن كل نوع من الرق يستبدل به نوعا آخر.

* * *

نشر تولستوي هذه الآراء في كتابه الذي سماه "ماذا علينا أن نفعل إذن؟" وهو كتاب بالغ فيه غاية التحمس في شرح المساوئ القائمة في الحياة الاجتماعية وبلغ فيه مبلغاً من الفن كبيرة. وقد تنبأ فيه بما يحدث في روسيا لو استمرت الحال كما كانت، إذ قال "مهما نحاول أن نخفي عن أنفسنا ذلك الخطر البسيط الظاهر الناشئ عن صبر أولئك الذين نخنقهم فقد ينفذ صبرهم. ومهما حاولنا أن ننفي ذلك الخطر بوسائل الخداع والعنف أو المداهنة، فان هذا الخطر يزداد في كل يوم وفي كل ساعة وهو يهددنا منذ أمد بعيد. وقد نما هذا الخطر حتى صرنا لا نستطيع إلا في صعوبة أن نحتفظ بأنفسنا في قاربنا الصغير فوق البحر الخضم، وهو يضرب قاربنا وينذر بأن يبتلعنا في باطنه. فثورة العال بما فيها من التدمير والقتل لا تهددنا فقط، بل نحن

نعيش فيها منذ ثلاثين سنة غير أننا استطعنا بوسائل وقتية أن نؤجل انفجارها وقتاً ما. هذه هي حالة أوروبا وهذه هي حالتنا بل هي شر لدينا، لأنه لا يوجد لها مخرج يفرج عنها، ففيما عدا القيصر لا يوجد في أعين جماهير الشعب مسوغ للطبقات التي تضطهده، وهذه الجماهير ثابتة في مركزها بمجرد العنف والحيلة، وانتهاز الفرصة أي بسرعة الانتباه، ولكن الكراهية لنا بين شر طبقة الشعب والاحتقار لنا بين خيره تنمو ساعة بعد ساعة".

"... فالكراهية والاحتقار بين الطبقات المضطهدة تنمو، والقوى الجسدية والاخلاقية في الطبقات الغنية تضعف، والخداع الذي يتوقف عليه كل شيء قد بدأ يتهلهل ولا تجد الطبقات الغنية ما تعزى به نفسها عن هذا الخطر.

"والعودة إلى الطرق القديمة مستحيلة وإعادة المكانة التي قضي عليها مستحيلة، ولم يبق إلا شيء واحد لأولئك الذين لا يرغبون في تغيير طريقة حياتهم هو أن يؤملوا قائلين لتظل الأمور سائرة كما هي مدة حياتنا، وبعد ذلك فليكن ما يكون".

لا ريب في أن مثل هذه الآراء تتفق مع كثير من آراء أولئك. الذين اتخذ رجال الثورة الشيوعية في روسيا كتبهم إنجيلا أمثال ماركس وإنجل وتتفق مع آراء القائمين بالثورة أنفسهم أمثال لينين وتروتسكى، ولكن بأية قوة يعبر الفيلسوف الكاتب وأية صورة مفزعة

يرسمها لحياة الطبقات الفقيرة إزاء ما ينعم به الأغنياء وما تتمتع به الطبقات الحاكمة، فهي في الحقيقة وقبل كل شيء صورة من رسم فنان، يرى بعينه ما لا يتضح لأعين الناس، ويستشف من وراء الحجب بعبقريته، ما كان وما سوف يكون، يرى ذلك الخضم الذي يداعب القارب الصغير ويوشك أن يبتلعه حيث لا نجاة.

وصف الفيلسوف العلاج لتلك الحال المحزنة فهو يشير على الطبقات الموسرة التي تتمتع بكل شيء، وهو فرد من أفرادها، أن تتقي الكارثة بأن تتدبر أمرها وتتنزل عن متاعها بمحض الرضا، بدلاً من أن تجبر على ذلك أجبارة، وهو علاج رجل أديب يعيش في عالم من الأحلام، وعلاج رجل طيب القلب يثق بالإنسانية، فهو رأي نظري غير ما كان يفكر فيه ماركس وإنجل ولينين من ثورة عالمية.

الفصل الحادي عشر

تلاميذ ومريدون

كان لهذا الانقلاب الكبير في آراء تولستوي تأثير قوي في مظهره، فهو على الرغم من قوة جسمه قد بدت الغضون في وجهه،وأخذ شعر رأسه ولحيته يميل إلى البياض، وكان أهم ما يشغله هو تطبيق تلك الآراء التي كانت تجيش في صدره، فهو بطبيعته لم يكن من أولئك الذين يكتفون بالنظريات أو ينشرون آراءهم تاركين أمر تحقيقها للزمن. بل هو في تفكيره كان رجل عمل لا تساوره فكرة جديدة حتى يعتقد كل الاعتقاد أن تنفيذها من الممكنات، ولذلك كان يعتقد أن الأغنياء لا يلبثون أن ينزلوا عن أراضيهم لفلاحيهم على إثر دعوته، وإنهم يقلعون بمحض اختيارهم عما ألفوه من ترف وملاذ، وأنهم سوف يعيشون عيشة بسيطة هي عيشة الفلاح، وحينئذ يشعرون باللذة حقا وبرضا النفس .. ولا ريب في أن حماسته لفكرته كان لها تأثير عظيم في نفوس الذين قرأوه وكان لبيانه أثر السحر فيهم.

وقد أخذت آراؤه تنتشر في سرعة بروسيا وأوروبا على الرغم من محاربة السلطات الحاكمة لها، وكانت كتبه الأخيرة، على أنها لم تنشر إلا سراً تتخاطفها أيدى المفكرين من الشباب، وكان بعضها لا يستطاع طبعه في روسيا فيطبع في بلاد أخرى ثم يهرب إليها. وبدأ

تولستوي يجد صدى لآرائه في أفئدة الكثيرين، فيكتبون إليه الرسائل مؤيدين أو مستفسرين ويرد عليهم الفيلسوف شارحة هذه الآراء. وجماعة من هؤلاء الأنصار والمريدين يلتفون حوله ليستزيدوا من آرائه وحكمته وينشروا هذه الآراء بين أصدقائهم. ولعل من أكثرهم أثر في حياة الفيلسوف فلاديمير شرتكوف، وهو شاب اتصل به في سنة ١٨٨٣ ولم يكن شرتكوف من عامة الشعب بل هو من الطبقة الأرستقراطية، فوالده قائد من قواد حاشية القيصر واسع الثراء، ووالدته من أكبر الأسر في العاصمة الروسية، وقد تعلم شتكوف نفسه في مدرسة الضباط والتحق بالجيش، وكان جميل الطلعة ظاهر النعمة، فتفتحت أمامه الأبواب وتنبأ الناس له بمستقبل باهر، على أنه في سنة ١٨٧٩ أراد أن يستقيل من الجيش ويعمل في الخدمة الاجتماعية، فتوسل إليه والده أن يحصل على إجازة لمدة سنة بدل الاستقالة في الحال عله يعود إلى رشده ويظل في عمله، فقام بتلك الإجازة وسافر إلى انجلترا فإذا عاد منها رغب إليه والده أن يستمر في الجيش بعض الوقت. ويؤكد تولستوي أن شرتكوف كان في أول زيارة مرتديا ثوباً حربياً، وتحدث إليه الفيلسوف شارحاً فكرته في أن الخدمة العسكرية لا تتفق والمبادئ المسيحية، وفي الزيارة الثانية كان الشاب قد هجر الجيش وأخذ يحقق ما تصبو إليه نفسه من العمل في سبيل الخدمة الاجتماعية، ورأى أن خير سبيل لذلك هو أن يعمل على نشر آراء

تولستوي؛ فهو ما يمكن أن نسميه في حياتنا الحديثة برجل الدعاية. وسنرى أثر شرتكوف بارزاً فيما بقي من حياة أستاذه.

لم يكن الفيلسوف نفسه أقل تأثيراً في نفوس زائريه من كتاباته، فقد كان هؤلاء الزائرون يذهبون إليه وهم ينتظرون أن يروا رجلاً محطماً أضناه طول التفكير فإذا هم أمام رجل خطه الشيب أجل، وبدا في قامته شيء من الانحناء، أجل، ولكنه مليء بالحياة لا يقتصر حديثه على الموضوعات الدينية والاجتماعية بل يسترسل في الحديث في كل موضوع، وهو خلاب بطلاقته وفصاحة بيانه. ولقد رآه صديق في تلك الفترة وكان قد عرفه في أيام شبابه فعجب لما ظهر عليه من رقة في معاملة الناس وقال إنه كرجل تجددت حياته إذ نفذ إلى نفسه إيمان جديد وحب جديد.

وقد كتب بير وكوف، الذي قام بنشر مؤلفات الفيلسوف باللغة الفرنسية وكتب ترجمة لحياته تعتبر الترجمة الأصيلة باللغة الروسية، يصف كيف تعرف إلى الفيلسوف، فقال "كنت قد تعرفت قبل ذلك إلى شرتكوف وتعلمت منه كيف يحب مؤلفات تولستوي ... وقد انتظرت أن أرى فيه كهلا يقضي وقته في دراسة مؤلفات رجال الدين من المسيحيين فوجدت رجلا طيب القلب مخلصة، في بساطته سحر وجاذبية" وكانت الأسرة تشرب الشاي عند زيارة بير وكوف وتكلم تولستوي أولاً في تعاليم الرسل، ولكن الحديث انتقل إلى علاقة المهن

واتصالها بالحياة المسيحية، فقال تولستوي في بساطة: يستطيع كل إنسان أن يجمع بين تعاليم المسيحية وبين أية مهنة إلا مهنة القانون والجيش. ثم نظر إلى ملابس بير وكوف وكان في ثياب ضابط في البحرية وقال معذرة لتفوهي بهذا القول أمامك. ولقد تأثر بير وكوف بهذا الكلام وخجل حتى لقد اعتزل عمله ولم يرتد تلك الملابس الرسمية من بعد.

لم يفقد تولستوي طول حياته قدرته على الضحك في براءة وحماسة كما يضحك الشبان، ولا قدرته على تبيان عيوب نفسه والسخرية منها، وكانت تأخذه أحياناً روح المرح فيشترك في الحفلات التي تقيمها زوجه ويرقص في خفة قد يحسده عليها الشبان، وحينئذ يظهر كأنه قذف بعشرين سنة من عمره.

ومن بين الذين عرفوه ومالوا إلى تعاليمه جولد نفايزر وهو شاب موهوب وعازف على البيانو معروف، كان قد شارك شليابن في إحدى الحفلات الموسيقية بمنزل أسرة تولستوي بموسكو، فتأثر بالفيلسوف وظل صديقاً له وتلميذاً طول حياته.

ومن بينهم ناظرة مدرسة اسمها ماي شميت قرأت كتب تولستوي، فقررت أن تغير من حياتها وهجرت المدرسة التي كانت ترأسها، وكان يقصدها الفتيات من علية القوم، وامتنعت عن الذهاب إلى الكنيسة ورفعت صور القديسين من منزلها واستبدلت بهم صور تولستوي،

وصارت تكسب قوتها بنقل صور من كتبه الممنوعة وبيعها للناس، ثم بعد قليل انضمت إلى تلك الجمعيات التي أخذت تنبث في طول البلاد وعرضها، حيث يعيش الناس عيشة بسيطة حسب الأسلوب الذي يدعو إليه تولستوي ويتركون سالف ثروتهم وترفهم.

وقد اتصل به المرمود مترجم مؤلفاته إلى الإنجليزية لأول مرة في سنة ١٨٨٨ ووصفته الكونتيسة بأنه "رجل ضخم الجثة وجيه المظهر كان يرى من واجبه أن يتبعني في الوقت الذي أكون فيه ميالة إلى العزلة".

ولعل أغرب تلاميذ تولستوي وأكثرهم تأثراً به أمير شاب هو البرنس هلكوف وهو لم يلتقي تولستوي في حياته، ولكنه تأثر بكتابته فوزع أكثر أراضيه على فلاحية وتطوع للعمل في المصانع، وكان يأبى أن يتناول أجراً طول المدة التي كان يشعر فيها أنه لم يتقن العمل، فإذا أتقنه عين أجراً لنفسه وقد أعلن فيما بعد خروجه على الكنيسة، فنفي إلى القوقاز وفيها عاش بين تلك الطائفة من المسيحيين التي وصفنا اتصال تولستوي بها من قبل، وكانت الكنيسة تعتبره هو والملحدين سواء، فرأت الحكومة نقله إلى منفي آخر في ولايات البلطيق. وفي سنة ١٨٩٨ سمحت له بمغادرة البلاد فذهب إلى انجلترا حيث عاش بين جماعة من معتنقي مذهب تولستوي وتلاميذه.

أخذ نفوذ تولستوي يتزايد بمرور السنين فتألفت في انجلترا

وهولندا والولايات المتحدة وغيرها من البلاد جماعات تؤمن بتعاليمه وتريد أن تعيش حسب آرائه حياة بسيطة بعيدة عن الترف وتعتقد بالأصول الأولى للمسيحية ولا تتأثر بتعاليم الكنيسة القائمة، ولم يكن تولستوي من المشجعين على تأليف هذه الجماعات؛ فقد كان غرضه الأكبر كما نرى من كتبه أن تنزل الطبقة العليا عن امتيازاتها وبذلك يصلح المجموع ويعيش الناس سعداء. لذلك لم يكن عجيباً أن تنحل تلك الجماعات التي تألفت ونمت وجعلت من هذه التعاليم نظاماً وطيداً. وقد صرح أكثر من مرة أنه لا يقر هذه الجماعات في نظامها وكتب في مذكراته بهذه المناسبة عندما زاره رئيس هذه الجماعات في بلاد المجر فقال "تحدثت إلى دوشان ولقد وضع نفسه على الرغم من إرادتي ممثلًا الى في بلاد المجر فأراد أن يستمع منى النصيحة في الطريقة التي يتبعها فانتهزت، هذه الفرصة لكي أوضح هذا الأمر لنفسي وأبين له أن التحدث عن تعاليم تولستوي، والحضور لديه للاستماع لنصائحه خطأ كبير؛ فليس في الأمر مذهب خاص أو تعاليم خاصة لتولستوي وليس في الأمر إلا تعاليم واحدة هي التعاليم الحقة، التعاليم الدائمة العامة التي بنيت أحسن بناء لي ولغيري، وهي في الأناجيل".

الفصل الثاني عشر

بين الأدب والفلسفة

تغيرت آراء تولستوي في الحياة والعالم، فلم يعد يرى في هذه الحياة غرضة غير الاصلاح الاجتماعي، وذهب في فكرته إلى حد إنكار ماضيه واعتبار الآثار الفنية الخالدة التي زاد بها في ثراء الأدب العالمي، إن هي إلا نوع من اللغو لا طائل من ورائه وأخذ يحمل على ما يسمى بالفن، ويرى أنه عبث يخفى عن أعين الناس حقيقة الحياة. وصار يعتبر أن أية كتابة يجب أن يكون غرضها تحقيق فكرة، أما الأدب الصرف فلا قيمة له. ومن البديهي أن يخشى رجال الفن أن يفقد تولستوي مقدرته الفنية بعد اتجاهه الجديد. ولكنه ما لبث أن وضع مؤلفات تدل على مقدرة فنية فائقة، وتدل على أن الساحر لم يفقد عصاه وان حاول في بعضها أن يرمي إلى مقصد غير المقصد الفي. في سنة ١٨٨٦ نشر قصة "موت إيفان ايلتش" ثم نشر بعد سنتين الرواية التمثيلية "قوة الظلام" وفي السنة التالية لها قصتي "سوناته كرويتزر" و"الشيطان".

ومع ذلك نجد لهذه القصص علاقة وثيقة بحياته الخاصة وآرائه الجديدة؛ فقد وصف في القصة الأولى حياة قاض من الطبقة العليا المثقفة عاش عيشة أهل تلك الطبقة لا يهتم إلا بنفسه ثم تحدث له

حادثة تافهة تؤدي به إلى المرض الذي مصيره موت محتوم، وهو في مصيره إلى الموت يتدبر في أمر نفسه ويعرض حياته التي قاربت نهايتها فيبدو له في آخر الأمر أن السعادة الحقيقية في انكار الذات والتطوع الخدمة الحياة الإنسانية ثم يموت غير تارك أي أثر في نفس مخلوق.

لم يبلغ تولستوي في قصة "سوناته كرويتزر" المستوى الفني الذي بلغه في القصة السابقة، ولكنه مع ذلك أوجد تماسكاً في جميع أجزاء القصة بمجرد الجو القاتم الذي وضعها فيه. وقد تولدت لديه فكرة هذه القصة من عدة عوامل: أولها أنه كان ذات مرة راكباً في قطار فإذا أحد الركاب ينقض عليه ويأخذ في رواية فصول من حياته الموثرة، وكان يقصها في تأثر ظاهر وموضوعها خيانة زوجة له، وحدث أن زاره في قصره الريفي الممثل الشهير باجا كوف وألقي بعض الفصول المؤثرة المقتبسة من مؤلفات دستويفسكي بصوته الرنان وإلقائه البديع، فأثار في نفسه الرغبة لأن يؤلف قصة تكون ذات حوادث مؤلمة تصلح لأن ينتقي الممثل منها بعض المنتخبات. ثم عزف في أثناء هذه الزيارة أحد أبنائه مع معلمه في الموسيقى القطعة الموسيقية "سوناته كرويتزر" لبتهوفن الخالد، فأوحى ذلك عنوان القصة ووسيلة التقرب فيها بين العاشق والزوجة الخائنة.

وهي قصة يرويها زوج في القطار، كان متزوجاً من فتاة جميلة يعيش معها عيشاً رغيداً وأحاطها بكل أنواع الترف وهو تاجر ميسور

الحال. وقد قدم إليها شابا من أعز أصدقائه فصار هذا الشاب يتردد إلى البيت وتزداد صلته بالزوجة لاسيما بعد أن اكتشفا أنهما مغرمان بالموسيقى، فيستطيعان أن يجتمعا للعزف معاً وكان الزوج كبير الثقة بالزوجة والصديق، ثم أخذت عيناه تتفتحان الأشياء أخذها عليهما، أو هي الغيرة بدأت تستيقظ في نفسه ثم ملكت عليه حواسه فإذا هو يفاجئهما يوماً وهما في غرفتهما فيقتل الزوجة ويهرب الصديق.

يرى بعض الناقدين أن هذه القصة كريهة موضوعها وبالآراء التي أراد الكاتب أن ينشرها، فهي تكاد تمجد ذلك النزاع الذي ينشأ بين زوج وزوجته نتيجة لعامل كريه مثل الغيرة، وهي تكاد تثبت أن هذا النزاع طبيعي في الحياة وتنقله من مجرد حادث فردي إلى نظرية عامة وإلى مجال نزاع بين الجنسين الرجل والمرأة،فالرجل قد تغلب من أقدم العصور على المرأة بقوته الجسدية فأوجدت الطبيعة فيها سلاحا تدافع به عن نفسها هو المكر والخديعة. وإذن فالزوجان إذا ظهرا أمام الناس بأنهما يكمل أحدهما الآخر هما في الحقيقة عدوان يتقاتلان كل بسلاحه، فالرجل يحاول السيطرة بقوته والمرأة تحاول خداع الزوج لتنتقم لنفسها ولجنسها منه، وهذا يحدث دائماً ولو لم يرد الزوجان ذلك. ومثل هذا الرأي ظاهره الخطأ ولا يجب أن يكون في الطبيعة وإن وجد فهو شاذ.

ومن العجيب أن يتجه تولستوي هذا الاتجاه وهو الذي كان قد سيطرت عليه النزعة الدينية ورأى في معيشة آباء الكنيسة المسيحية المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الرجل من طهارة وتقي، ومح ذلك كان لتولستوي زوجة وله إلى ذلك الحين ما يقرب من ثلاثة عشر طفلاً.

وليست هذه القصة في مستوى قصصه العظيمة مثل "آنا كرنينا" و"الحرب والسلام" فتلك قصص جامعة تقتطع من حياة الإنسانية عصوراً بأسرها وتحلل هذه العصور وتحلل حشداً من الناس تحليلاً يصلح لكل الأزمان، فأين منها هذه القصة التي يرويها رجل في القطار وتدور حوادثها على رجل وزوجته وعشيقها؟ على أنها مع ذلك تثبت تماماً أن تولستوي لم ينس فنه وإن اعتبر هذا الفن وسيلة للإعراب عن آرائه.

أحدث ظهور هذه القصة رجة صامتة، فعندما كتبها تولستوي لأول مرة وأراد قراءتها على أفراد أسرته ومريديه رأي بعض الحاضرين الذين أطلعوا عليها من قبل أن من الواجب ألا يحضر الفتيات قراءتها ووافقهم الكاتب على هذا، ثم قدمت للرقابة فإذا أمر يصدر بمنع نشرها، وبحثت الكونتيسة تولستوي سبب مصادرتها فتبينت لها أن ذلك كان بأمر القيصر. ولما كان الكثيرون من الذين سمعوا القصة أو قرأوها في الطبعات السرية التي كانت تصدر دائماً إثر مصادرة مؤلفات

تولستوي رأوا فيها ما يدل على تبرم تولستوي بحياته الزوجية بل إن زوجته نفسها شعرت بشيء من ذلك، فقد أرادت أن تكون هي العاملة على رفع هذا المنع من نشرها. وذهبت إلى بطرسبرج لمقابلة القيصر فتحدث إليها مبدياً استياءه من تطور تولستوي ونزعته نحو آراء مثيرة في الأخلاق والاجتماع وابتعاده عن الكنيسة، فأخبرته أنها تحاول العودة بزوجها إلى التأليف الأدبي والفني، ولذلك فإن منع قطعة فنية وإن كان فيها شيء من الآراء الغريبة قد يدفعه الى العودة إلى كتاباته الاجتماعية والدينية، فأعرب القيصر عن رغبته في أن يعود الكاتب إلى أدبه إذ هو كاتب ممتاز حقاً. ثم أراد القيصر أن يجاملها فسمح بنشر القصة في مجموعة المؤلفات، وخرجت الكونتيسة مغتبطة لهذه الزيارة التي قابلها فيها القيصر خير مقابلة، وهيأ لها زيارة للقيصرة بنفسه وذكرها للأخصاء فامتدحها، وبلغها هذا المديح، أما الفيلسوف فقد ضايقه سعي زوجته وقال في رسالة لصديق: "لقد وصلت زوجتي أمس من بطرسبرج بعد أن قابلت القيصر وتكلمت إليه في شأن مؤلفاتي لغير ما ضرورة ووعد بأن يسمح بنشر القصة في مجموعة المؤلفات وهذا شيء لا يسرني فلابد أن هذه القصة تحتوي على جوانب سيئة، لقد كرهتها أريد أن أنساها، وكانت تتغلب على نزعات شريرة عندما كتبتها، وسأحاول أن أتجنب مثل هذه النزعات في المستقبل.

* * *

ذكرنا أن تولستوي أخرج في هذا الوقت رواية تمثيلية هي "قوة الظلام" وهي قصة محزنة عن حياة الفلاح كتبها وهو طريح الفراش سنة ١٨٦٦ وبعد ذلك بقليل قام بتمثيلها بعض الأشراف في بلاط القيصر، ويقال إن القيصر أعجب بها إعجاباً شديداً على أن رئيس الأساقفة كاشف القيصر بأمرها، وأخبره أنها تظهر فلاحي روسيا في مظهر غير لائق إذا ما مثلت في غرب أوروبا، ونجح في إقناعه بأن يصدر أمره بعدم تمثيلها. وهكذا ظلت بعيدة عن المسرح الروسي إلى سنة ١٨٩٥ ولا ريب في أن حرمان تلك البلاد من تمثيلها لم يكن عملاً موفقاً؛ إذ الواقع أنها مثلت على مسرح أنطوان بباريس سنة ١٨٨٨ ونجحت نجاحاً غريباً حتى صارت تمثل في ثلاثة مسارح باريسية مختلفة في وقت واحد، وقد امتدحها زولا امتداحاً كبيراً، وكتب برنارد شو لمؤلفها فيما بعد يقول "إني لا أذكر شيئاً جذبني في جميع الروايات التمثيلية قاطبة، مثل ذلك الجندي الشيخ في رواية قوة الظلام، وفي رأيي أن ذلك المنظر الذي نرى فيه السكيرين: وهما طريحان على القش، وأكبر المتشردين سناً يرفع الأصغر منهما فوق جبينه، وأنانيته هو منظر ذو تأثير عميق قلما تصل إليه هذه المناظر الخيالية". ولا ريب في أن شو تأثر في مؤلفاته الأولى بتولستوي وطريقة عرضه لآرائه.

بعد ثلاث سنوات من تأليفه لهذه الرواية وضع رواية تمثيلية

أخرى اسمها "ثمرة الثقافة" وهي نقد الفكرة البحث في الروحانيات والعقلية التي تتجه إليه، وفيها عرض ماهر لمسألة امتلاك الأراضي، وقد نالت نجاحا كبيرة عند تمثيلها في المسرح القيصري.

واتخذ تولستوي الرواية التمثيلية وسيلة لإبداء أفكاره في "الجثة الحية" وقد وضعها في نهاية حياته، ثم في الرواية التي لم يتمها وهي "النور يضيء في الظلام" وموضوع هذه الرواية حادثة واقعية وفيها يبين كيف يكون للقانون أحيانا مساوئ حين يتدخل في الحياة الخاصة، وذلك أن رجلا يمل حياته الزوجية فيرى أن يدع الانتحار كي يبدأ حياة جديدة مع صديقة مخلصة كان يحبها منذ أمد بعيد، وتتزوج الزوجة الأولى من رجل آخر، وتعيش عيشة هنيئة، وكلاهما واثق أنه انتحر حقيقة. ثم يظهر أنه لا يزال حياً ويتهمان بتهمة الزواج مرتين، ويرى الزوج الأول بعد أن يعلم السعادة التي تتمتع بها زوجته، أن لا سبيل لإنقاذها غير الانتحار.

الفصل الثالث عشر

شقاق

لكي ندرك حياة تولستوي بين أسرته يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء، وإلى ذلك الزمن الذي تزوج فيه الضابط تولستوي وهو من أكرم الأسر الروسية وأقدمها، من فتاة صغيرة ابنة طبيب. كان في الرابعة والثلاثين من عمره وقد عرف الحياة وملاهيها وملذاتها، وانغمس فيما يأتيه الشبان عادة، والجنود بنوع خاص، من خمر ونساء وميسر؛ وهي فتاة صغيرة لا تعدو الثامنة عشرة من عمرها، لا تخلو من سذاجة ولا من دهاء. وتم هذا الزواج فدخلت في تلك الأسرة العريقة، وبدأت تتحمل تبعاتها بما يليق بالأسرة الواسعة الثراء، وأخذت تدير أمور زوجها وتحيا حياة بنات طبقتها، بقدر ما يسمح به لسيدة مقيمة في أملاكها الشاسعة بالريف.

أقبل الزوج على زوجته الصغيرة بما أثر عنه من مبالغة في كل شيء ويأتيه، فكأنه يعاشر عشيقة لا زوجة، وأحبت الزوجة رفيق حياتها حباً كبيراً، زاده ما رأت فيه من استسلام وتركه الأمور لها، وهي بطبيعتها ميالة للسيطرة فصارت ربة البيت بمعنى الكلمة، فهي المتصرفة في شئونه. ولم يلبث هذا الزواج أن أتى بثمرته وأخذ الأطفال يظهرون في العالم تباعاً، وكان من الطبيعي أن يترك الزوج ماضيه فلم

يعد للخمر والنساء والميسر. وانتهج حياة جديدة واتجه للكتابة والتأليف فوضع تلك القصص العظيمة،وكانت زوجته تساعده فتمضي الساعات في نقل الرموز التي كان يسود بها الصفحات لكي تصبح صالحة للنشر. وكم كان هذا العمل شاقاً ولكنه كان لذيذاً لديها تقبل عليه راضية.

لم يكن في هذه الحياة موضعا للشكوى أو الشقاق بين الزوجين؛ فهي مسيطرة على كل أمور البيت والضياع، والزوج لا ينازعها في ذلك، وإن كان يتدخل أحياناً لينفذ بعض مشروعات اجتماعية تراها الزوجة خيالية ولكنها ترى أن لا بأس فيها. والزوج منصرف بوجه خاص إلى التفكير في مؤلفاته القصصية التي تقدرها الزوجة حق قدرها وهما يعيشان في رخاء.

لكن ما لبث الزوج أن هجر الكتابة، وأقبل على قراءة كتب وبحوث غريبة وأخذ يقبل على موضوعات لا ترى الكونتيسة من ورائها طائلاً؛ وكانت الزوجة مسيحية متعبدة تقوم بواجبات الكنيسة وشاركها زوجها في ذلك عند بدء نزعته الجديدة، ولكنها كانت تنكر البحث في أمور الدين، وكتبت إلى أختها تذكر انكبابه على دراسة الأناجيل وترجو أن يمر هذا الطور على زوجها ويزول كما تزول الأمراض. ويأخذ الزوج في دراسة اللغة العبرية لزيادة التعمق في هذا البحث فلا تستطيع أن تخفي الزوجة استياءها مما تسميه غباوة لا فائدة فيها.

وليس من العجيب أن تشعر الكونتيسة هذا الشعور إذ وقتئذ كانت في شرخ شبابها وروعة جمالها، تحب الشهرة والمجتمعات والثياب الجميلة، على حين كان الزوج لا يمل المناقشة في الديانة المسيحية والمذاهب الدينية.

ثم أسرع الزوج في خطاه، واقترنت فكرته الدينية بفكرة اجتماعية، فهو يرى أن حياة الأغنياء لا تطاق وأنهم يستعبدون الطبقات الفقيرة ويسخرونها لملاذهم، ويرى أن الأمور تسير إلى ثورة لا يمكن اتقاؤها إلا بنزول الأغنياء من تلقاء أنفسهم عن ملاذهم وعن أموالهم المغتصبة من الفقير العامل، الذي بذل في سبيلها أعصابه ودمه.

ثم تقدم الزوج بعد هذه النظريات إلى زوجته يعرض عليها أن تنزل عن ضياعها الواسعة وأن يعيشا حياة بسيطة تتفق والتعاليم التي ينادي بها، فماذا كان تأثير هذا الكلام في الزوجة؟ لقد وقعت في حيرة من أمرها ودهشت لجرأته واستولى عليها الغضب وحاولت أن تكظم هذا الغضب فلم تفلح، فكيف يضحي بسعادتها وسعادة أولادها أو ما ترى فيه السعادة؟ أما الزوج فلم يفهم كيف تأبى زوجته تنفيذ فكرته وهو يكتب لصديق سنة ١٨٨٢ يصف حالته مع أسرته: "لا أعلم لماذا قدر على أن أرى غباوتهم ظاهرة في حين هم لا يستطيعون أن يفهموا خطأهم؟ وهكذا تظل في نضال دون أن يفهم بعضنا بعضا ودون تعاتب بيننا، غير أنهم كثيرون وأنا فرد واحد".

لم يكن تولستوي في يوم من الأيام كبير التعلق بأولاده الكثيرين، وكان يترك أمرهم لزوجته فهي التي تحتضنهم وتقوم على تربيتهم. غير أن الفيلسوف يتدخل بين حين وآخر في أمر هذه التربية ليطبق فكرة من أفكاره ثم يعود فيهمل شأنهم. ولكن وجود الفيلسوف نفسه، في منظره المهيب بشعره الكثيف وملابسه البسيطة التي هي أقرب إلى ملابس القرويين ومروره في غرف الدار ذهاباً وجيئة، وهو ينتقل من غرفة نومه إلى بعض الغرف الأخرى لاسيما مكتبه، وهو دائم التفكير تائه في بيداء أفكاره، لابد أن يؤثر في هذه الجوقة العديدة من الغلمان والفتيات، الذين جاء بهم الفيلسوف إلى هذا العالم كما يجئ الحر بصغاره دون أن يدرى. وإذا كان بين هؤلاء الغلمان من يشبه أباه في المظهر فلم يكن بينهم من يشبهه في تفكيره. وكان تدخله أحياناً في أمور أولاده يشبه تدخل العالم المجرب عند ما يريد أن يقف على نظرية في حياة حي من الأحياء. وكان يهتم لأمورهم إذا ما أدركوا السن التي تفصل بين الطفولة والرجولة. ولعله كان يحث عليهم تلك النزعات التي دفعت به في مبدأ الرجولة إلى أن يأتي أموراً أبتها نفسه فيها بعد. وقد تزوج أكثر الفتيان في سن مبكرة، وكان زواج بعضهم موفقا وبعضهم غير موفق. ومما ساعد على أن يكون هؤلاء الفتيان من غير الساعين إلى الرزق أن أباهم فكر في تطبيق نظرياته ولكن في شيء من التعديل، فقسم أراضيه وضياعه الواسعة بين أولاده وزوجته، فأثار هذا التقسيم منازعات بين الأخوة لا نهاية لها.

على أنه كان أكثر توفيقاً في بناته؛ فالكبرى منهن، تاتيانا، فتاة مهذبة تحب التصوير شديدة العطف على أبويها. والتي تليها، ماشا، أظهرت ميلاً شديداً لمذهب أبيها فرفضت قسطها من ثروة الأب عند توزيعها، وكانت تغسل ملابسها بيديها وأخذت تبحث عن مهنة فعملت ممرضة متطوعة، وكانت إذا ما ذهبت إلى الريف أخذت في العناية بأبناء الفلاحين، فقارب ذلك بينها وبين أبيها واتخذها كاتبة له تقوم بنقل مسودات كتبه وترتب رسائله.

ثم تأتي الابنة الثالثة الكسندرا وكانت فتاة جبارة لا تخضع لغير مربيتها الإنجليزية. أما الصغيرة فكانت وديعة هادئة الطبع كثيراً ما تصاب بالأمراض.

* * *

هكذا كانت حياة تولستوي بين أسرته حياة يحسد عليها في الظاهر، فهو في ثرائه الواسع وفي كثرة أولاده لابد أن يكون محسودا من الآباء، وهو في شهرته العالمية لابد أن يكون محسودا من الأدباء والكتاب، ولكنه كان في الحقيقة غير سعيد، فالآراء التي اعتنقها، والتي وجدت صدى غريبا في نفوس الملايين من أبناء تلك الأمة التعسة، وجذبت إليه من أنحاء روسيا بل من أنحاء العالم جماعة من المتحمسين يعتنقون مذهبه ويسيرون على هداه، قد حملته عبئاً لابد أن ينهض به، ووضعت على كتفيه ثقلا لابد أن يسير به إلى النهاية. وكان ينبغي

لكي يكون سعيداً أن يجد بين أفراد أسرته من يفهمه كل الفهم، ويجد قبل ذلك في زوجته أكبر مساعد له في رسالته، ولكنه ويا للأسف لم تكن عند ظنه. فهي قد قدرت ما لزوجها من نبوغ حقاً حين كان زوجه يكتب تلك القصص الخالدة التي ظهر أثرها فيما تدره من مال بزيادهما ثراء فوق ثراء، ولكنها لم تعد تفهم زوجها حين هجر القصة إلى تلك الكتابات العجيبة وتلك البحوث التي لا طائل من ورائها في رأيها. ولا فائدة منها إلا تنغيص حياتها وحياة أولادها. ولا يمكن أن يجني منها الأديب ثمرة إلا أن صار مكروهاً من الكنيسة والدولة. تنظر إليه الهيئات الرسمية نظرة الخوف والغضب.

لقد حاولت منذ لاحظت تحول زوجها إلى تلك الآراء أن تثني زوجها عن السير في الطريق الخطر الذي رسمه لنفسه فلما رأته يأبى إلا الاستمرار في بحوثه، عللت النفس بأن ما به إن هو إلا حمى عابرة، فإذا هو يستمر في سبيله، وحينئذ لم يسعها أن تسكت، وصارحت زوجها بالشكوى ولأول مرة رأت منه إعراضاً وعناداً، ولم تكن قد اعتادت من الإعراض والعناد، فبدأت بينهما تلك الحرب الخفية التي استعملت فيها أسلحة مختلفة. والغريب في هذه الحرب أن كلا من المتحاربين كان لا يستطيع الاستغناء عن الآخر، فهي ترى في استمرار تولستوي على عناده. دليلا على تحول قلبه عنها فتبكي وتصخب، وهو لا يطيق فراق زوجته، ولا يطيق مع تقدم سنه أن يجعل من علاقة

الزوجية علاقة صداقة هادئة، بعيدة عن ذلك الاندفاع الذي ينغمس فيه الشبان. وهكذا تسير بينهما هذه الحرب الخفية، يهادنان فيها وقت قصيرة، ثم يعودان إليها في أشد ما تكون.

لم يكن هذا النضال ليخفى على المحيطين به من أبنائه وبناته ولا على تلاميذه ومن الطبيعي أن ينقسم الأبناء فريقين فريق يؤيد الأم وفريق يؤيد الأب، ومن الطبيعي أيضا أن يكون التلاميذ جميعاً في صف أستاذهم، ويكون أشدهم تحمساً لآراء الفيلسوف أشدهم حملة على الزوجة. وهنا نفهم سر الكراهية التي قامت بين الزوجة وبين تشتكوف أكبر داعية لمذهبيه.

لقد رأت في آرائه الأخيرة خطوة جديدة هي ميل زوجها عن حبها وزهده في علاقتهما وهو الرجل الذي كان يندفع إلى زوجته اندفاع العشيق إلى عشيقته. وهو لا يزال يندفع أحياناً، ولكن شيئاً في عقله يقف حائلاً دونها، وينذره بأن نزعاته الجسدية نحو الزوجة تحول بينه وبين تلك الرسالة التي يحاول أن ينهض بها لخير المجتمع.

وهو بلا ريب كان يشعر بأكبر السعادة في هذه الزوجة التي تسهر على أمواله وضياعه؛ ولكن هاتفا في نفسه يسائله دائماً إنك تدعو الأغنياء إلى النزول بمحض رغبتهم عن أموالهم لكي يحققوا السعادة والعيش الرغيد لمواطنيهم؛ فماذا فعلت أنت؟ ستقول إنك، تركت إدارة ضياعك الواسعة وانصرفت إلى رسالتك.

أجل ولكنك تركتها في يد أقدر منك على إدارة هذه الضياع الواسعة وتنمية الثروة لفائدة الأفراد القلائل من أولادك لا لنفع الفقراء والفلاحين كما تزعم. ثم إنك لا تكتفي، بل تزعم بأنك تضع المؤلفات لخير الإنسانية، ولكن هذه الكتب تدر عليك أيضاً من الربح الوفير وتزيد من ثرائك وتحجز المال عن الفقراء، فماذا فعلت؟

يقسو الهاتف عليه ولكن ماذا يفعل؟ إنه لا يجد الشجاعة لانتزاع هذه الضياع المتزايدة من زوجته وأسرته، ولا يستطيع أن يمنع الأموال المتدفقة من كتبه ولكنه، يتخذ خطوة أولى فيعلن أنه تنازل عن حقوقه في كتبه الاجتماعية، ووهب هذه الكتب. وهنا هبت الزوجة مدافعة عن حقوقها وحقوق أولادها وتقوم بين الزوجين عواصف من الشقاق تهدأ حيناً، ثم لا تلبث أن تعود أقوى مما كانت تلتمس الزوجة وسائل عدة كي تحمل الفيلسوف على الإقلاع عن نزعته فإذا كان الكلام لا يقنعه فقد يكون الفعل أكثر إقناعاً. ولقد أوحى لها تفكيرها أن تجرب في إقناعه فكرة الانتحار أو الظهور بهذا المظهر. في ذات ليلة من الليالي اشتد بينهما النقاش، فجرت الزوجة إلى الغابة حيث خلعت ملابسها وارتمت على الثلج وهي تأمل أن تصاب بمرض يودي بحياتها، فلما بحث عنها الأتباع وجدوها على هذه الحالة فحملوها إلى الدار، ولكن جسدها القوي لم يتأثر. وانتهت هذه الحادثة بالصلح بين الزوجين.

تكرر الخصام الكريه بين الزوجين، وكان كريهاً لأنه كان ظاهراً أمام أعين جمع من الناس لا يتركوهما إلا وقت النوم، فهنالك الأولاد العديدون وزوجات المتزوجين منهم، وهنالك التلاميذ العديدون الذين أحاطوا بالفيلسوف وعاشوا في ضيعته حسب تعاليمه وأكثر هؤلاء يؤيدون الفيلسوف في وجهة نظره، وهم متأثرون بآرائه التي ترتفع إلى السماء، ولا يشفقون على الكونتيسة التي تنظر لأمور الأرض.

ولعله مما يزيد في قبح هذا الشقاق أن الفيلسوف تخطي مراحل الشباب وقطع من العمر ما يعتبر حدا لمرحلة الحياة. أما الزوجة فإن لم تكن في شرخ الصبا فهي لا تزال محتفظة بمسحة من جمال.

لم تفد محاولة الانتحار في حمل الفيلسوف على العدول عن رأيه في النزول عن حقوق الطبع في كتبه الأخيرة، فهي تجرب وسيلة أخرى ما أقساها.

ذلك أنه وفد على قصرهم في الضيعة عازف من الماهرين في العزف على البيانو، وكان شابا وسيما جميل الطلعة، فأخذت الكونتيسة تتقرب إليه وقامت الألفة بينهما، وأخذ الجماعة المحيطون بهما يتكلمون في أمر هذه الألفة والألسنة تسترسل في القول، ولاحظ الزوج نمو هذه العلاقة في ألم كان يخفيه ولكنه ولا شك كان ملحوظاً لدى الذين من حوله، وزادت كراهية الكارهين للزوجة.

أكانت هذه العلاقة حقيقة أم مجرد تظاهر من الزوجة؟ إن الزوجة

في مذكراتها تؤكد أن العلاقة بريئة، وهي بلا ريب بريئة، ولكن هل ننكر عليها إذا سعت وراء السعادة التي حرمتها بالروح إن لم يكن بالجسد؟

انتهى هذا الحادث بأن طلب تولستوي ذات مرة من الموسيقار ألا يعود إلى داره مرة ثانية. كان هذا النزاع بين الزوجين تعقبه فترات من الهدوء كما تعقب العواصف فترات من الشمس الساطعة، ولكن موضوع النزاع لا يتغير. وفي إحدى هذه الفترات الهادئة وضع تولستوي نشرة صغيرة على سبيل المزاح وصف فيها نفسه وأسرته سماها "نشرة المرضى في مستشفى المجاذيب بأسنايا بوليانا" وفيها وصف نفسه بقوله: مجنون من النوع الهادئ يتوهم أنه قادر على تحويل حياة الناس بمجرد الألفاظ. وعلاماته المرضية أنه لا يرضى بالنظام القائم، وينحي باللوم على جميع الناس ما عدا نفسه، ثم ينتابه الغضب فلا يملك نفسه مهما كان شأن الحاضرين، ويتحول سريعا من الغضب والضيق إلى العطف والحساسية المليئة بالضعف. ومن علاماته الخاصة أنه يشغل نفسه بأعمال

غير صالحة له مثل تنظيف الأحذية وصنعها وجمع الحشائش من الأرض. وخير علاج ألا يحفل جميع الذين يحيطون به بينما يقول، وأن يشغل بما يتفق فيه جميع ما فيه من نشاط. ووصف الكونتيسة زوجته بقوله هي أيضا من النوع الذي لا خطر منه ولكن تنتابها أحياناً

نوبات، يجب فيها استعمال القوة معها، فهي عرضة لجنون الغضب الشديد المصحوب بالصخب، وهي تتوهم أن الناس يطلبون منها كل شيء وأنها لا تستطيع أن تفعل كل شيء ومن علامات مرضها حل مسائل لم تقترح، والإجابة على أسئلة لم تسأل، والرد على اتهامات لم توجه، وإرضاء مطالب لم تطلب. وعلاجها العمل الشاق والأكل الخاص والابتعاد عن حياة المجتمعات.

في سنة ١٨٨٤ انتابت الكونتيسة أزمة شديدة أخرى وعادت إلى اتهام زوجها والعمل على تنغيص حياته، وحاولت الانتحار مرة أخرى، وكانت في ذلك الوقت قد قاربت أن تخرج إلى العالم طفلاً صغيراً من أطفاله الكثيرين. ولا ريب في أن العامل الأول في هذا الخلاف دائماً مسألة النزول عن أرباحه من مؤلفاته، وقد حاول مرات عدة أن يفهمها موقفه الذي لا يتفق مع ما ينشره من آراء حتى صار عرضة للنقد والتجريح ولكنه لم يفلح في إقناعها. وأخيرا رأى أن محاولاته من العبث فوكل إلى الزوجة أمور أملاكه وحقوق الطبع في كتبه التي نشرها، قبل سنة ١٨٨١ وظن بذلك أن العاصفة هدأت ولن تعود.

الفصل الرابع عشر

مجد

انتهي قرن من الزمن وبزغ نجم قرن آخر وقد أربى تولستوي على السبعين، وهو الذي كان يظن وهو في مقتبل العمر وشرخ الشباب أكثر من مرة أنه مصاب بمرض خطير. وكم من مرة اعترته أمراض ظن معها أنه لا يعيش، وقد قطع هذه المرحلة من عمر بن الإنسان وقد مسته الشيخوخة في مظهره فتجعد وجهه وابيض شعره، ولكن قوته البدنية لم تصب بوهن ظاهر. ففي هذه السن أو قبل ذلك بسنوات قليلة تزوره إحدى تلميذاته من الإنجليزيات فيعلمها كيف تركب الدراجة. وهو في هذه السن يلاعب الفتيان من أولاده فيسابقهم في الجرى مسافات طويلة من غير أن يظهر عليه تعب، وهو يعمل في الحقول مع الفلاحين فلا يكل من العمل.

وكان اسمه قد انتشر في جميع أنحاء العالم وصارت داره في اسنايا بوليانا مزاراً يحج إليه الأدباء والمصلحون وجميع الذين يفكرون في خير الجنس البشري، وكان زملاؤه من الكتاب الروسيين يعترفون بزعامته؛ فالقصصي تشيكوف أمير القصة القصيرة كان كبير التعلق بالفيلسوف الهرم وكان على اتصال به، وقد وصفه في رسالة بقوله "إني أعرف تولستوي وأعتقد أني أعرفه جيداً، وأفهم كل حركة من حركات عينيه،

وأحبه حباً حقيقياً" وأعرب لصديق عن مخاوفه عندما مرض الفيلسوف مرضاً شديداً بقوله "إني أخشى وفاة تولستوي، فلو مات لترك فراغاً في حياتي أولاً لأني لم أحب أحداً قط كما أحببته، ولست من الذين يتمسكون بالعقائد، ولكنني أعتبر عقيدته أقرب العقائد إلى نفسى وثانياً لأنه ما دام تولستوي بين الأدباء فمن السهل واللذيذ لدي أن أعيش كاتبة وإن لم أكتب شيئاً. ولست أكتب الآن شيئاً فليس في ذلك إيلام لي؛ لأن تولستوي كتب ما فيه الكفاية للجميع. ومؤلفاته تحقق الآمال التي تعقد على الأدب. ثالثاً لتولستوي وقفة ثابتة وسلطان عظيم وما دام تولستوي حياً فإن قلة الذوق في الأدب والتفاهة في كل نوع والاندفاع أو البكاء وكل ما هو عنوان المظاهر سوف يظل بعيداً وخفياً، وسيحتفظ سلطانه الأدبي للتيارات الأدبية بمستواها العالي، فبغيره يكون الأدباء قطيعاً بلا راع أو خليطاً لا يمكن أن يجد فيه الإنسان شيئاً".

ولم تكن شهرة تولستوي في الأقطار المختلفة مقصورة على تلاميذه، بل صار اسمه علماً معروفاً ثابتاً في كل البلاد وكان العظماء من مختلف الأجناس إذا زاروا روسيا لابد أن يعرجوا على الفيلسوف في قصره ليروا أثمن درة في تلك البلاد. ومن الذين زاروه من مشاهير الشرق الزعيم غاندي الذي تأثر بآرائه تأثراً كبيراً واقتبس منه فكرة المقاومة السلبية وطبقها تطبيقاً عجيباً شاملاً في تلك الحركات التي قام

بها من أجل خلاص الهند. وعندما اخترع أديسون المخترع الأمريكي آلة الفوتوغراف رأى أن يهدي إحدى أعاجيبه إلى فيلسوف روسيا الذي أرسل له رسالة يعرب فيها عن سروره العظيم بهذا الاختراع ويشكره على هديته. وهكذا كان تولستوي في أوائل القرن العشرين في طليعة رجال الفكر لا في أوروبا وحدها بل في العالم بأسره.

ولعله لم يبلغ أحد من الكتاب الذين عرفوا تولستوي في حياته في وصفه، ما بلغ جوركي الكاتب الروسي الشريد الذي عرف الشقاء وعاش بين الشريرين وامتدت به الحياة إلى أن رأى الثورة الروسية وصار من أكبر مؤيديها وزعيم أدبائها، فهو من بين الذين اتصلوا بتولستوي في شيخوخته وعرفوه حق المعرفة وقدروا مواهبه وتأثروا بأفكاره، وإن كان قد عرف شيئاً من مواطن الضعف فيه؛ فهو يخبرنا أن تولستوي ما كان يهتم له إلا اهتماماً نوعياً، أي كان يحب أن يدرس فيه رجلاً ولد في الشقاء وعاش فيه. على أن جوركى لم يهمل الجانب الإنساني من تولستوي وتكلم عن قلبه الكبير وحبه للإنسانية وبساطته في معيشته، ورسم له صورة حية بديعة يصف فيها خصاله كقوله:

"إني لأذكر عينيه الناقدتين اللتين تريان كل شيء، وحركة أصابعه التي كأنها تصنع شيئاً من الهواء، وأذكر حديثه ونكاته وصوته الذي لا يمكن تحديد رنته، وأقدر أي نصيب كبير كان لهذا الرجل في الحياة وإلى أي مدى بعيد كان ذكاؤه الباعث على الرهبة. لقد رأيته مرة في حال

ربما لم يره فيها انسان عند ما ذهبت الزيارة جاسبيرا، إذ بينما كنت أسير على شاطئ البحر رأيت رجلا ضئيل الجسم منحني القامة قليلاً في ثيابه الرمادية وقبعته القديمة جالساً في الطريق على مقربة من قصر آل يوسكوف وقد أسند خديه بكفيه، وبرزت نتف فضية من شعره تلوح من بين أصابعه، وهو يطيل التأمل في البحر، حين كانت الأمواج الخضراء تزحف إلى قدميه في دعابة، كأنها تروي قصتها لذلك الساحر القديم. وكان الجو تغطيه أحياناً أشباح السحب وهي تسير فوق الصخور، فتضئ صورة الرجل الهرم بضوء الشمس، ثم تعود إلى الظلام. وكانت الصخور كبيرة بها مغاور وتفوح منها روائح الأعشاب البحرية التي قذفها المد في اليوم السابق، ونظر هو إلى وكأنه قطعة من صخر قديم حي يعرف بدايات الأشياء ونهاياتها، ويفكر متى وكيف يكون مصير أحجار الأرض وأشجارها ومصير مياه البحر والانسان والعالم بأسره من الصخر إلى الشمس ... فكأني أصبت بجنون عجيب، واعتقدت إنه من المستطاع أن يقف على قدميه ويشير بيده فيسكن البحر ويصير كالزجاج، وتتحرك الصخور وتصيح، وتدب الحياة في كل ما حولنا ونسمع أصواتها وحديثها، كل يتكلم بصوته عن نفسه وعنه هو ويتكلم ضده، ولم تكن لدي من العبارات ما يعبر عما جال بنفسي في تلك اللحظة؛ فقد امتلأت النفس بالابتهال والحشية، ثم انتقلت إلى شعور فرح، إذ قلت لها لست الآن يتيماً ووحيداً في هذا العالم، ما

كان هذا الرجل موجوداً فيه، فتراجعت محاذراً وأنا أحاول ألا يحدث وطء قدمي للأحجار صوتاً وعدت من حيث أتيت لكي لا أقطع عليه سير أفكاره ... كنت أفسر تحيته حين يتلقاني بقوله سعدت صباحاً، بأنها كلمة لعلها لا تسرني وليس لها معنى لديه ولكنها مجرد تحية ثم يظهر هيكله الضئيل وإذا جميع الأشياء حوله تنكمش بالنسبة إليه، بلحيته المتدلية كلحية الفلاح ويديه الخشنتين العجيبتين وملابسه العادية وذلك المظهر الديمقراطي الخارجي الذي خدع كثيرين. فيلاحظ المرء كيف أن بعض الروسيين الذين اعتادوا أن يحكموا على الناس بمظهرهم، وهي عادة قديمة تم على العبودية، ينتقلون إلى صراحة سافرة لعل وصفها بالتآلف هو أقرب للحقيقة ...

"إذن أنت واحد منا. ولقد وجعتك. لقد صرت أخيراً جديراً بأن أنظر إلى وجه أكبر أبناء بلادي، فإليك تحيتي الآن ودائماً وأقبل أكبر احترامي ..."

هذا هو الأسلوب الروسي لأهل موسكو بسيط وصريح، ولكن هنالك أسلوبا روسيا آخر هو الذي يستعمله الرجل الحر الفكر.

"أني لا أستطيع الموافقة على آرائك في الدين والفلسفة يا ليف نقولا يفتش، ولكني احترمك كفنان كبير ...

وحينئذ يظهر فجأة من ثنايا تلك اللحية المتدلية التي هي أشبه بلحية الفلاح وتلك السترة الديمقراطية المشوشة ذلك السيد الروسي

العتيق الأرستقراطي المحتد، وحينئذ نجد هؤلاء الناس الذين تكلموا في صراحة واندفاع وقد از رقت أنوفهم من أثر برد قارس: وإنه لمن اللذة أن ترقب ذلك المواد الأصيل فستلاحظ علائم الرقة والنبل في إشاراته، وتتبين كيف يتحكم برقة في الحديث، وكيف يسدد الرماية بالعبارة المصقولة وكان فيه من صفات السادة ما يستطيع به أن يقف العبيد والمرائين. فاذا ما استيقظ السيد في تولستوي ظهر في سهولة وبساطة ووقفهم عند حدهم فاذا بهم لا يجدون أمامهم إلا أن ينكمشوا ويقبعوا في أنفسهم.

لو أراد ليف نيقولا يفتش أن يجذب أحدة لوصل إلى غرضه في سهولة أكثر من امرأة جميلة ذكية. وكثيراً ما تمتلئ غرفته بخليط من الناس، الغراندوق نيقولاي ميخائيلوفتش وإيليا المبيض الاشتراكي الديمقراطي من بلدة "يالتا" والسياسي باتسوك أو أحد الموسيقيين والمدير الألماني لأملاك الكونتيسة كلاينميكل والشاعر بولكا كوف، فتراهم جميعاً جلوساً وهم ينظرون إليه متيمين به في حين هو يشرح فلسفة "لاو – تسى" لهم وكأنه جوقة موسيقية كاملة يقوم بها رجل واحد ....."

هذا وصف له من رجل كان من بعده في طليعة كتاب روسيا وصار زعيماً للأدباء في عصر السوفييت.

الفصل الخامس عشر

فرار

من الطبيعي إذا ما بلغ المرء الثمانين وهي تعتبر مديدة في حياة بني البشر، أن تهدأ نفسه، وأن يستقر ما يهب من عواصف ثائرة، وأن يترك أمور الحياة تسير في طبيعتها، وأن يعتبر أن رسالته في هذه الحياة قد انتهت وأن المراحل التي قطعها لا يستطيع العودة فيها.

تلك طبيعة الإنسان، ومما يساعد على هذا السكون وهذا الاستسلام أن يكون قد نال قسطاً مما يعتبر في هذه الحياة سعادة أو نوعاً من السعادة. وقد وفق تولستوي للسعادة بحسب مقاييس الناس أو هو لم يعرف غيرها؛ فقد جاءه المال عفواً دون أن يسعى إليه، ورثه عن أب عن جد، وخلف ذرية كبيرة فعاش منعماً. وكان يستطيع ألا يعرف الشقاء إلا على أنه كلمة تدل على حالة يصاب بها بعض الناس، ولكنه أوتي نعمة، أو قل نقمة، هي العقل، فأبى إلا أن يعرف الشقاء ويدرسه بنفسه، فبدت نتيجة ذلك في مؤلفاته العديدة التي تكلم فيها في موضوعات كان يرى أقرب الناس إليه، أعني زوجته، أن لا طائل من ورائها فهي لا تزيد المال ولا تجلب الشهرة.

لم يبق له وقد بلغ الثمانين من العمر إلا أن ينظر إلى الماضي فيجد أنه بذل جهداً جباراً، وأخرج للناس من روائع الأدب والحكمة

ما قد يخلد اسمه دهوراً أما أن تنبت آراؤه الاجتماعية وتنمو ويكون لها أثر بعيد في العالم، فذلك موكول للأقدار، ولا يرجى منه بعد الثمانين أن يفعل أكثر من ذلك وعليه فيما بقي من سنوات معدودات أن يخلد إلى هدوء يشبه هدوء الذي يتفرج على قصة مسرحية، فلا يتأثر بها لمجرد أنه يشعر بأنه يشهد قصة.

وليس من المفروض أن يشعر الإنسان بنهاية أجله مادام بعيداً عن وطأة مرض خطير، والأمل في الحياة والانخداع بها لا ينقطع ما دامت الحياة، ولكنه قد يشعر بأنه قام بواجبه فلم يبق له إلا الراحة.

على أن تولستوي لم يكن من الذين يخلدون إلى الراحة وقد عمل كثيرة ووجد أنصاراً من كل جانب يسعون لتحقيق أفكاره، ولكنه كان يشعر في قرارة نفسه بأنه لم يتبع تعاليم نفسه، فهل نزل عن طيب خاطر عن ثروته؟ إنه اتخذ مظهر الفقراء في لباسه وفي معيشته أحيانا، ولكنه يفعل ذلك كما يفعل الممثل، لا كما فعل قديس مثل فرانسيس داسيزى مثلاً، فهذا كتب ونشر بالوسائل الحديثة وملأ الأرض صياحاً من أمريكا إلى الهند، وذاك لم يكن يملك من الوسائل إلا القول والمثل الذي يضربه للناس في نفسه.

إنه يستطيع أن يزعم الآن بأنه وزع ثروته على أولاده وعاد هو فقيرا لا يملك شيئاً ولكن ما شأن تلك المبالغ الكبيرة التي تتدفق عليه من أرباح مؤلفاته وهى الحقوق التي تحاول امرأته وتجاهد في سبيل

الاحتفاظ بها ويريد أشد تلاميذه تعصباً لمبادئه أن يحمله على النزول عنها وتركها للأمة..

فهو في هذه السن المتقدمة لا يزال يجد في حياته مشاكل لابد أن يحلها. ولعل أكبرها هذا الصراع القائم خفية ثم علانية بين الزوجة التي تفكر في نفسها وأولادها وبين الأنصار من تلاميذه الذين اتخذوا آراءه مذهباً وأرادوا أن يحملوا أستاذهم على أن يتبع هذا المذهب وأن يكون أول من يطبقه.

ولقد صارت مسألة الوصية التي يوصي بها الأستاذ من أكبر موضوعات النزاع بين الزوجة وبعض وأولاده من جانب وبين التلاميذ وبعض بناته من جانب آخر. وقد ذهبت الزوجة في هذا الصراع العنيف إلى حد خيف فيه أن تفقد عقلها نهائياً. وكان مجرد رؤية أحد غرمائها من المريدين أو البنات ولاسيما شرتكوف زعيم هؤلاء الغرماء مما يحدث لديها نوبة شديدة من الاضطراب والنواح. وفي وسط هذه الزوابع المتصلة يعيش الفيلسوف وهو يترجح بين هذا الفريق وبين ذاك.. هذا يجذبه وذاك يجذبه، حتى ليكاد يمزق بينهم وكأنهم زبانية الجحيم.

ولقد أدى به الأمر إلى أن أرسل ذات مرة إلى شتكوف يطلب إليه أن يمتنع زمناً عن زيارته؛ لأن امرأته لا تطيق رؤيته. ولكنه في الوقت ذاته اتفق مع شرتكوف سراً على تحرير وصية نهائية ينزل بها

عن حقوقه في مؤلفاته لصالح الدعاية لمذهبه. في أحد الأيام ادعي الفيلسوف أنه ذاهب لنزهة في الغابة وكان يستطيع إلى ذلك الحين أن يمتطى الجياد فقصد مكاناً معيناً سبقه إليه شرتكوف وبعض الشهود، وهنالك وقع وصية قانونية نزل فيها عن حقوقه وجعل ابنته قائمة على تنفيذ الوصية وهو ما يتفق مع القانون الروسي، ثم عاد إلى دارم وقد ارتاح من إلحاح تلاميذه، ولكن ضميره كان مثقلاً لأنه حرم امرأته وأولاده حقوقهم. ولعل أشد ما آلمه وأثر في نفسه أن رجلا مثله اعتاد الصراحة في كل عمل يقدم تحت ضغط أنصاره على عمل بعيد عن الصراحة.

لم تلبث الزوجة أن علمت بما حدث وضاعفت الشكوى من تصرفاته، وعزمت عزماً أكيداً على أن تستولي على هذه الوصية أو تثنيه عنها. ولكن كيف تستطيع ذلك وهو مرتبط في ذلك الوقت بتلاميذ، ولو أراد العدول عن وصيته لما استطاع.

كان شرتكوف الداعية أقوى إرادة من النبي الهرم فهو الذي يسيطر على تفسير مذهبه، وهو الذي يسيطر على النبي حتى في أخص تصرفاته.

أما الزوجة فهي تضج بالشكاية وتلتمس بوسائل العنف أو الحيلة أن تضع يدها على الوصية، وتضطهد الشيخ في سبيل ذلك اضطهاداً كبيراً. وكانت تشعر أن شرتكوف عدوها الألد، وهي تهمه

أمام جميع الخلائق وترميه بكل نقيصة، وتغرق في ذلك حتى تتوعد بدس السم له.

وبلغ من حقدها أن دعت ذات ليلة كاهناً وأحرقت صور شرتكوف، ثم طلبت إلى الكاهن أن يطهر الدار من سحر الشيطان، فأخذ الكاهن بملابسه الدينية المزركشة يرتل الآيات ويرش غرفة تولستوي ومكتبه بالماء المقدس.

هذا شأن الأب والأم. أما الأبناء فانقسموا إلى معسكرين فريق يؤيد الأم ويرى أنها إن بالغت أحياناً فهي معذورة لأخطاء الفيلسوف، وفريق آخر يؤيد الأب أو لنقل إنه يؤيد شرنكوف. وعلى رأس هذا الفريق الأخير الكسندرا ابنة تولستوي التي كانت أكثر الأبناء شبهاً بأمها، وكانت صديقة حميمة لشرتكوف فهي وكيلة عنه في هذه الدار التي دخلها الشقاق فجعل منها جحيماً لرجل عظيم في شيخوخته كان أحرى به أن يجد الراحة والدعة في تلك الأيام الأخيرة.

أثرت هذه الحال في تولستوي وقد جاوز الثمانين، ففي ٣ أكتوبر سنة ١٩١٠ أغمي عليه ذات مرة، وظنت زوجته وظن تلاميذه أن النهاية أشرفت، فجاء شرتكوف إلى الدار في خفية عن الزوجة لكي يأخذ في تنفيذ الوصية، وفاجأت الابنة الكبرى الأم وهي تحاول الاستيلاء على بعض المؤلفات المخطوطة لزوجها فحالت بينها وبين ما تريد.

على أن الفيلسوف ما لبث أن قام من مرضه، وكانت الابنة الكبرى قد اعتزمت مغادرة الدار، فتوسلت اليها أمها ووعدت باحترام إرادة الزوج وعاد الوئام، وذهبت الزوجة في سبيل المسالمة إلى حد دعوة شرنكوف لزيارة البيت.

ومع ذلك لم يكن هذا الهدوء إلا ظاهراً، فالزوجة لم تقلع عما اعتزمته من أمرها، وتولستوى لا زال يشعر في أعماق نفسه أنه لم يقم بواجبه، وأن حياته إن هي إلا عراك دائم، فهو يكتب في مذكراته: "أجد الضغط الدائم والارتياب والتجسس، وأجد من جهتي رغبة سوء في أن تتيح لي سبباً للرحيل؛ ثم أذكر مركزها فأرثى لها ولا أستطيع ..... كنت طول الليل أشعر بنزاعي الأليم معها ..... إنه لا يحتمل إنه لفظيع".

حدث بعد ذلك أن زار الفيلسوف رجل من أحب تلاميذه إليه وهو الفلاح نوفيكوف فرغب، إليه الفيلسوف أن يجد له داراً صغيرة في قريته النائية كي يأوي إليها ويخلد إلى الهدوء، وظل يخط في مذكراته ما يشعر بالضيق من حالته وتبرمه بما أسماه الجاسوسية المحيطة به.

في الساعة الثالثة من صباح يوم ٢٨ أكتوبر استيقظ فإذا به يسمع حفيف ورق، فقام وقصد مكتبه ففاجأ زوجته وهي تبحث بين أوراقه، وهو حادث بسيط كثيراً ما أتت ما هو أكبر منه، ومع ذلك كانت الكأس قد طفحت فثارت نفسه اشمئزازاً وأشعل الشمعة، فلما

رأته سألته عن صحته فأجابها إجابة غامضة، وتركت هي ما كانت فيه وعادت إلى مخدعها، وقصد هو فراشه وتصنع النوم إلى أن وثق من نومها، فقام وارتدي ملابسه وحمل في يده حذاءه ومشى على أطراف أصابعه وقصد إلى غرفة ماكوفتزكي تلميذه وطبيبه فأيقظه، ثم قصد إلى الغرفة التي تنام فيها ابنته الكسندرا وصديقة لها فأيقظهما وأنبأهما بعزمه على الرحيل وأن يعدا العدة لسفره.

وبينما كانا يفعلان ذلك أخذ يخط رسالة وداع لزوجته: "أعلم أن رحيلي سيحزنك وإني لآسف لذلك. ولكن أرجو أن تفهمي وتعتقدي أن ليس ثمة سبيل آخر. فمركزي بالدار قد صار لا يحتمل.

ثم لا أستطيع بعد الآن أن أعيش عيشة الشرف التي ظللت أحياها حتى الآن. وإني في بساطة أقدم على ما أفعله في مثل شيخوختي، وهو الانسحاب من العالم لكي أقضي الأيام الأخيرة من حياتي في هدوء ووحدة. أتوسل إليك أن تحاولي فهم هذا وإذا علمت مكاني فلا تتبعيني فمجيئك لا يغير من عزمي ويزيد مركزنا سوءاً، وإني لشاكر لك على ثمان وأربعين سنة شريفة قضيناها في معيشة واحدة، وألتمس منك أن تصفحي عن كل ما استحق عليه اللوم نحوك، كما أني أصفح بمجامع نفسي عن كل ما تستحقين عليه اللوم نحوي. ونصيحتي إليك هي أن تألفي هذا المركز الجديد الذي يضعك فيه رحيلي، وألا تكنى أي شعور سيء نحوي. وإذا أردت أن ترسلي إلى

شيئا فأعطيه لساشا فهي استعرف مكاني وترسل إلى ما هو ضروري، ولكنها لا تستطيع أن تخبرك بمكاني لأنها وعدت بألا تخبر أحداً".

وخرج تولستوي في الظلام الدامس ليأمر بإعداد العربة والجياد، وفي طريقه اصطدم بشجرة أطاحت بقبعته ووقع في حفرة بين الأشجار وعاد منهوك القوي ورأسه عار، فأتت له ابنته بقبعة أخرى وخرجوا معاً إلى حيث العربة. وأخبرها الشيخ أنه سيقصد أولاً زيارة أخته في دير شامردينو ومنه يرسل إليها بأنبائه، وركب العربة مع طبيبه، وامتطى خادم جواداً وفي يده مشعل كي ينير الطريق أمام العربة، وسار الركب في الطريق. أما الفتاتان فقفلتا عائدتين وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف من الصباح.

سارت العربة إلى المحطة ومنها ركب تولستوي وطبيبة القطار في مساء ذلك اليوم إلى دير أوبتينا حيث أرسل الشيخ برقية إلى ابنته الكسندرا وأخبرها أنه سيواصل السفر في اليوم التالي إلى مقر أخته وأمضى البرقية باسم مستعار حتى لا يعرف مرسلها.

وفي صباح ٢٩ أكتوبر لحق به رسول من شرتكوف أنبأه أن الكونتيسه ما علمت برحيله حتى حاولت الانتحار بأن ألقت بنفسها في البحيرة. وقد عرضت عليها فكرة الانفصال فأبدت معارضة شديدة في ذلك، وأنها عازمة على البحث عنه واللحاق به وكانت الكسندرا عند ما جاءها برقية أبيها قد رأت أن تخبر أخوتها بفراره،

ولكنها كتمت عن الجميع مقره ولم تخبر أحداً غير شرتكوف.

شعر تولستوي على أثر هذه الأنباء بأنه مطارد، ولكنه لم يغير من طريقه وقصد إلى مقر أخته، وإن كان قد عزم على ألا يقيم في جوارها طويلاً. ولما قرع بابها في مساء تلك الليلة كان متعباً ووصف لها خالته والدموع تتناثر من عينيه فطيبت خاطره وعاد إليه هدوءه وعاد إلى التفكير في المقام على مقربة منها.

ولحقت به الكسندرا وصديقتها في اليوم التالي فامتعض لمجي تلك الفتاة التي كانت تناضل أمها بسبب اختلافهما في الطباع بل لقرب الشبه بينهما فكل منهما مندفع عنيف.

أثارت الكسندرا من مخاوفه مرة ثانية وزعمت أن مكانه لا يلبث أن يعرف، وألحت عليه في الرحيل العاجل فقرر الشيخ المسكين متابعة السفر مع أنه في الواقع لم يكن قادراً عليه؛ ولم يخطر للطبيب أن يعترض على هذا السفر بل لقد أمضى الليل في لعب الورق مع تلك الفتاة الجبارة.

وفي الساعة الرابعة صباحاً أيقظ تولستوي رفاقه وكتب كلمة إلى أخته ينبئها بأنه يسافر فجأة خشية أن يكتشف مقره؛ وأمضى ثلاث ساعات في العربة التي أقلته إلى المحطة في حين كان المطر والثلج ينهمر عليه في جو عاصف.

في المحطة ركبوا القطار وقد قررت الفتاة السفر أولاً إلى رستوف أي أن تقطع بالشيخ نحو ألف من الكيلومترات ..

انزوى تولستوي في مقعده وقد ظهر عليه المرض وأخذ يرتعش بردة تحت ردائه السميك. وأخيراً لاحظ الطبيب علائم المرض وقرر أن يتعرف مقياس حرارته فإذا هي مرتفعة ارتفاعاً كبيراً، وكانت الساعة الرابعة مساء ومرت ساعتان وإذا حرارة جسده تتزايد، وانزعج رفاق الشيخ وقرروا أن ينزلوا في أول بلدة يقف بها القطار، ونزلوا في أول بلدة وكانت استايوفو وقال تولستوي وهو يغادر القطار متكئاً على ذراع ابنته "لقد قهرنا في هذه المسابقة فلا تتضايقي".

قدم ناظر المحطة للضيوف غرفة في داره إذ لم يكن هنالك مأوى آخر، وأعد للمريض سريراً متواضعاً، فإذا تم اعداده انتقل إليه الشيخ من المحطة وجئ بطبيب القرية وتعاون الطبيبان على فحصه وقررا أنه مصاب بالتهاب في الرئة. وكان تولستوي قد أخذ يسعل وظهر الدم في بصاقه ولكنه كان يسائل في قلق: "هل تستطيع مواصلة السفر في الغد؟ ثم ما لبث أن ازدادت حالته سوءاً ولكنه كان يصيح: "يجب أن نرحل ... يجب أن نرحل قبل أن يدركونا".

أخطرت الكسندرا شرتكوف بمرض أبيها، ولكنها لم تخطر أمها وكانت قد بدأت تشعر بخطورة الحالة، فأخطرت أخاها سرج وطلبت إليه أن يحضر طبيباً ماهراً.

أما الزوجة فلم تعلم بحال زوجها إلا من برقية أحد مراسلي الصحف الذي تطوع فأخبرها بحال زوجها ومكانه، فسافرت مسرعة في قطار خاص مستصحبة ابنتها تاتيانا وابنيها ميخائيل وأندريا.

وفي اليوم التالي كانت أنباء فرار تولستوي ومرضه في جميع الصحف، وصارت هذه القرية الصغيرة موضع اهتمام العالم، وهرع إليها الأقارب والأصدقاء ورجال الصحافة والمصورون ورجال السينما، وإذا هذا المريض الذي كان ينشد الوحدة ويود أن يقضي أيامه الأخيرة في هدوء، يمضى تلك الأيام الأخيرة وسط زوبعة من الإعلان لم يسبق لها مثيل حيث ينقل البرق انباءه ساعة فساعة إلى جميع العواصم في أوروبا وأمريكا.

وصلت الزوجة إلى مقر زوجها المريض، ولكن الابنة والمريد حالا دون مقابلتها له وظلت المسكينة مقيمة في القطار الخاص ولم يسمحوا لغير ابنتها المرافقة لها في دخول البيت، ولم يعلم تولستوي أن امرأته مع ثلاث من أبنائه يحومون حول البيت الذي رقد فيه.

قضي تولستوي ليلة ٣ نوفمبر في اضطراب وإن خفت وطأة الحمى. فإذا أصبح الصباح تنبه قليلا إلى وجود ابنته تاتيانا فسألها عن أمها فأخبرته بأنها تود لو تدعى إلى سرير مرضه فلم يجب. وبعد زمن قصير طلب إلى الكسندرا أن ترسل برقية إلى أولاده كي يحولوا دون مجيء أمهم إذ أنه يشعر بضعف في قلبه وقد لا يحتمل رؤيتها.

وكان أهله المحيطون به في اليوم التالي يترددون بين الخوف والأمل وهم يسهرون على راحته، بينما الزوجة تراقبها ممرضتان لتحولا بينها وبين الدخول، تختلس النظر من خلال النوافذ أو تبث شكواها لمن يرغب في سماعها، أو تقف للمصورين وهي واقفة على عتبة الباب كأنها خارجة من البيت بعد أن رأت زوجها.

وكان هنالك شخص آخر يحاول الوصول إلى الأديب دون أن يستطيع، وهو كاهن تلك الجهة. فإن المحيطين بالأديب حالوا دون دخوله، ولو تمكن لسمع العالم أن تولستوي مات بعد أن عاد إلى أحضان الكنيسة.

وفي ٥ نوفمبر كان تولستوي لا يكاد يستطيع الكلام فهو يتمتم لابنته: "إن عبئاً كبيراً واقع على سونيا ... لقد أسأنا الترتيب ... ويتمتم لابنه: "الحقيقة ... إني أحب كثيراً ... كيف حالهم؟

وفي اليوم التالي ساءت حالته إلى درجة كبيرة وفقد وعيه، ولكنه صاح ذات مرة بصوت عال: "لقد جاءت النهاية ... ولا أنصحكم إلا بنصيحة واحدة ... إن في العالم كثيرين غير ليون تولستوي وأنتم لا تعنون إلا به".

وما جاء الليل حتى كان في أسوأ حال، وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي دخل في دور النزع الأخير، وعندئذ فقط سمح لزوجته بأن تراه، فجئت إلى جانب سريره وأخذت تقبل يده وهي

تقول "اغفر لي" فتنهد تولستوي تنهداً عميقاً، ولكنه ظل في غشيته إلى أن أسلم النفس الأخير.

أهم الحوادث في حياة تولستوي

١٨٢٨ مولده في اسنايا بوليانا (٢٨ أغسطس)

١٨٣٠ وفاة والدته

١٨٣٦ انتقال الأسرة إلى موسكو

١٨٣٧ وفاة والده

١٨٤٠ السفر إلى قازان

١٨٤٤ الالتحاق بجامعة قازان

١٨٤٧ البدء في تدوين مذكراته

١٨٤٨ مغادرته قازان إلى موسكو

١٨٥١ السفر إلى القوقاز

١٨٥٢ الالتحاق بالخدمة العسكرية

١٨٥٤ النقل إلى جيش الدانوب

١٨٥٥ موقعة سباستبول

وفاة القيصر نقولا الأول وتولى اسكندر الثاني

١٨٥٧ كتاب الطفولة والشباب

قصة بوليكوشكا

١٨٦٠ الرحلة الأولى إلى فرنسا وسويسرا

١٨٦١ الرحلة الثانية إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا والبلجيك
قرار الغاء نظام تبعية الفلاحين لصاحب الأرض

١٨٦٢ الزواج

١٨٦٧ قصة الحرب والسلام، مسرحية ثمار الثقافة

١٨٦٩

١٨٧٠ دراسة اللغة اليونانية

١٨٧٢ وضع كتاب المطالعة

١٨٧٥ قصة انا كرنينا

١٨٧٧

١٨٧٩ كتاب اعترافات

١٨٨١ مقتل القيصر اسكندر الثاني وتولى اسكندر الثالث السكني في موسكو

١٨٨٢ التعداد واشتراكه فيه

١٨٨٣ اتصاله بشيرتكوف – كتاب ماذا يجب أن نفعل إذن

١٨٨٦ قصة وفاة إيفان إيلتش

١٨٨٨ ولادة النجل الثالث عشر إيفان

١٨٩٠ قصة سوناته كرويتزر

١٨٩١ اعلان رغبته في التنازل عن حقوق الطبع في مؤلفاته

١٨٩٤ وفاة القيصر اسكندر الثالث وتولى نقولا الثاني

١٨٩٥ وفاة نجله إيفان

١٨٩٧ نفي شيرتكوف وبير وكوف

١٩٠١ قصة الحاج مراد

حرمانه من الكنيسة

١٩٠٢ نداء إلى رجال الدين

١٩٠٤ فكروا في أنفسكم، وفاة أخيه سيرج

بدء الحرب بين اليابان وروسيا

١٩٠٧ عودة شيرتكوف

١٩٠٩ تحريره وصية

١٩١٠ فرار تولستوي (٢٨ أكتوبر)

وفاته (٧ نوفمبر)

مجموعة مؤلفات تولستوي

الطبعة الروسية أشرف عليها بير وكوف وهي في ٢٤ مجلداً (موسكو سنة ١٩١٣)

الطبعة الفرنسية ترجمة بينستوك وراجعها بيروكوف على المخطوطات الأصلية (باريس سنة ١٩٠٢) الطبعة الانجليزية التذكارية ترجمة لويز وإلمرمود في ١٨ مجلداً (لندن سنة ١٩٢٨)

مذكرات تولستوي

من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٨٥٢

ترجمها هوجارث إلى الانجليرية ونشرت بلندن سنة ١٩١٧

ترجمها روستوف وجان ديرى إلى الفرنسية ونشرت في باريس سنة ١٩٢١

من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٥٧

ترجمها لويز وإلمرمود إلى الإنجليزية ونشرت بلندن سنة ١٩٢٧

من سنة ١٨٥٢ إلى سنة ١٨٦٣

ترجمها شوزفيل وبوزنر إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٢٦

من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٩

ترجمها روزستر ونزكى إلى الانجليرية ونشرت بنيويورك ١٩١٧

ترجمها روستوف وجان دى بيت إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩١٠

سنة ١٩١٠

ترجمها إلمرمود تحت اسم النضال, الأخير ونشرت بلندن سنة ١٩٣٦

ترجمها شوزفيل إلى الفرنسية ونشرت بباريس سنة ١٩٤٠

مذكرات أعضاء أسرة تولستوي وأصدقائه

مذكرات الكونتيسة تولستوي زوجته، رسائل تولستوي نفسه، مذكرات بهرز، مذكرات الكونت إيليا تولستوي، الكونتيسة صوفيا تولستوي (تاريخ حياة نفسها)، كونت ليو تولستوي (الحقيقة عن والدي)، الكونتيسة الكسندرا تولستوي (مأساة تولستوي)، كونت سيرج تولستوي (النضال الأخير)، محادثات وذكريات المكسيم جوركى وجولدنفايزر وسير جنيكو وبيرجاكوف.

أهم الكتب عن حياته

بيروكوف، رومان رولان، نويس، شيرتكوف، إلمرمود، نازاروف، ديلون.

دراسات

ميريجكوفسكي، شتينر، كروسي، لافران، زفايج، بورشيه، سواريس.

الفهرس